الغنية

عن الكلام وأهله

تأليف الإمام المحدث/

أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي

(المتوفى: سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، رحمه الله)

تقديم فضيلة الشيخ/

أبي بكر عبد الرزاق بن صالح النهمي

حفظه الله تعالى وأعزه

تعليق الفقير إلى الله تعالى/

أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا

الإندونيسي الجاوي عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

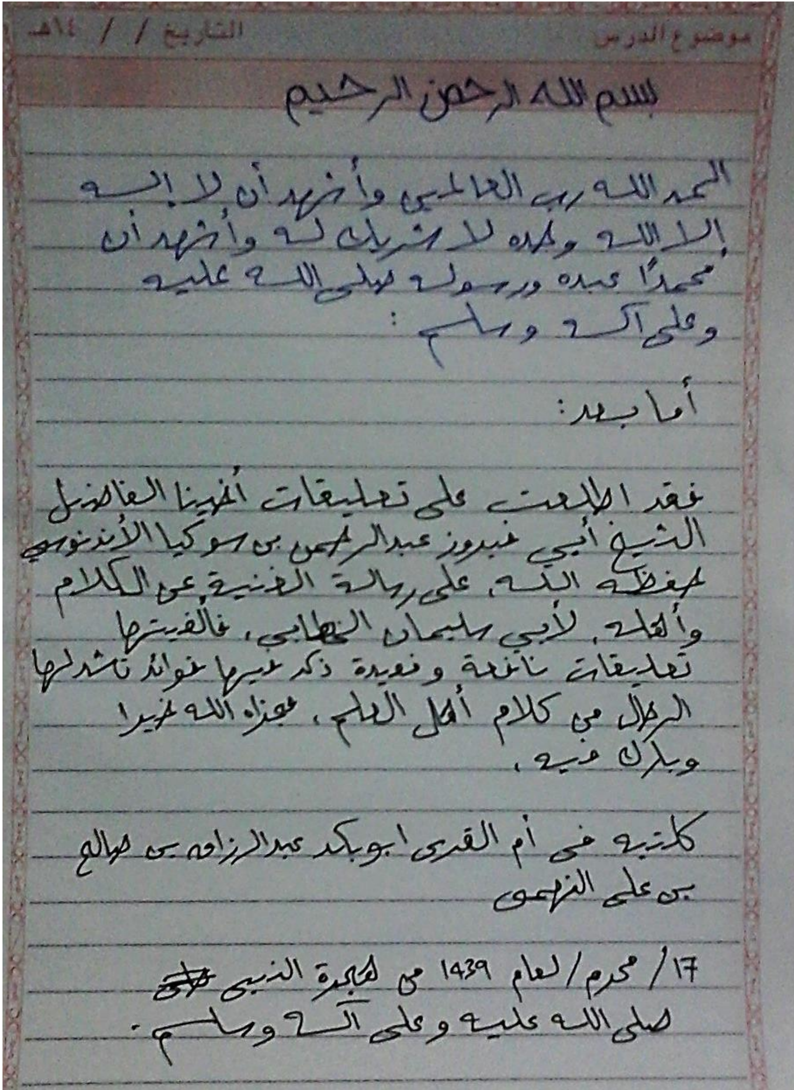
الغنية عن الكلام وأهله

للإمام أبي سليمان الخطابي رحمه الله

الطبعة الأولى: بماليزيا، محرم ١٤٣٩ هـ

مكتبة فيروز الديلمي

صورة تقديم فضيلة الشيخ أبي بكر عبد الرزاق بن صالح الذماري النـهمي حفظه الله



موضوع الدرس التاريخ / / ١٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

أما بعد:

فقد اطلعت على تعليقات أخينا الفاضل الشيخ أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكيا الأندونيسي حفظه الله، على رسالة الغنية عن الكلام وأهله، لأبي سليمان الخطابي، فألفيتها تعليقات نافعة ومفيدة ذكر فيها فوائد تشد لها الرحال من كلام أهل العلم، فجزاه الله خيرًا وبارك فيه،

كتبه في أم القرى أبو بكر عبد الرزاق بن صالح بن علي النهمي

١٧/ محرم/ العام ١٤٣٩ من هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ أبي بكر عبد الرزاق بن صالح بن علي الذماري النـهمي حفظه الله

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما بعد:

فقد اطلعت على تعليقات أخينا الفاضل الشيخ أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي –حفظه الله– على رسالة **"الغنية عن الكلام وأهله"** لأبي سليمان الخطابي، فألفيتها تعليقات نافعة ومفيدة ذكر فيها فوائد تشدّ لها الرحال من كلام أهل العلم، فجزاه الله خيراً وبارك فيه.

كتبه في أم القرى

أبو بكر عبد الرزاق بن صالح بن علي النهمي.

١٧ / محرم / لعام ١٤٣٩ في هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعلِّق وفقه الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا

---

[١] سورة آل عمران: (١٠٢).

[٢] سورة النساء: (١).

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٣]. أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

فقد سألني بعض الإخوة عن موقفنا في علم الكلام أو المنطق أو الفلسفة؟ وقد كثرت أقوال علماء أهل السنة والجماعة –الإمام الشافعي ومن بعده– في خطر علم الكلام، وقد نقلتها في بعض الرسائل.

وفي هذه الفرصة الثمينة أقدم للقرّاء الكرام رسالة لطيفة من أحد أئمة المسلمين المشهورين وهو الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله، وهذه الرسالة وإن صغرت حجمها فهي عظيمة الشأن وكبيرة الفوائد، وقد تكلم فيها في علم الكلام ببيان جميل.

---

[٣] سورة الأحزاب: (٧٠-٧١).

وقد حشّيت هذه الرسالة بما يسر الله من التعاليق المهمة زيادة للتوضيح والبيان مع مراعاة الاختصار، أسأل الله تعالى أن ينفع بها وبأصلها.

وجزى الله تعالى فضيلة شيخنا أبا بكر عبد الرزاق بن صالح بن علي اليمني الذماري –حفظه الله ورعاه– خير الجزاء ورفع قدره في الدارين، على جهوده في تأييده لهذه الرسالة.

وأسأل الله عز وجل أن يجزي كاتبها خير الجزاء، وأن يغفر لمعلّقها ذنوبه وخطاياه، إنه هو البرّ الرحيم.

نبذة من ترجمة الإمام الخطابي رحمه الله

اسمه:

هو أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، من أهل "بست"، من بلاد "كابل" ، من نسل زيد بن الخطاب، أخي عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

مولده:

ولد سنة بضع عشرة وثلاث مئة.

من مشايخه:

سمع من: أبي سعيد بن الأعرابي بمكة، ومن إسماعيل بن محمد الصفار وطبقته ببغداد، ومن أبي بكر بن داسة وغيره بالبصرة، ومن أبي العباس الأصم، وعدة بنيسابور. وعني بهذا الشأن متناً وإسناداً.

وروى أيضاً عن أبي عمرو بن السماك، ومكرم القاضي، وأبي عمر غلام ثعلب، وحمزة بن محمد العقبي، وأبي بكر النجاد، وجعفر بن محمد الخلدي. وأخذ الفقه على مذهب الشافعي عن أبي بكر القفال الشاشي، وأبي علي بن أبي هريرة، ونظرائهما.

من تلاميذه:

حدث عنه: أبو عبد الله الحاكم وهو من أقرانه في السن والسند، والإمام أبو حامد الإسفراييني، وأبو عمرو محمد بن عبد الله الرزجاهي، والعلامة أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي، وأبو ذر عبد بن أحمد، وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغرنوي، وجعفر بن محمد بن علي المروذي المجاور، وأبو بكر محمد بن الحسين الغزنوي المقرئ، وعلي بن الحسن السجزي الفقيه، ومحمد بن علي بن عبدالملك الفارسي الفسوي، وأبو الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، وطائفة سواهم.

ثناء بعض العلماء عليه:

قال الحافظ أبو طاهر السلفي: وأما أبو سليمان الشارح لكتاب أبي داود، فإذا وقف منصف على مصنفاته، واطلع على بديع تصرفاته في مؤلفاته، تحقق إمامته وديانته فيما يورده وأمانته، وكان قد رحل في الحديث وقراءة العلوم، وطوف، ثم ألف في فنون من العلم، وصنف، وفي شيوخه كثرة، وكذلك في تصانيفه، منها "شرح السنن"، الذي عولنا على الشروع في إملائه وإلقائه، وكتابه في غريب الحديث، ذكر فيه ما لم يذكره أبو عبيد، ولا ابن قتيبة في كتابيهما، وهو كتاب ممتع مفيد.

وقال السمعاني: كان الخطابي حجة صدوقاً، رحل إلى العراق، والحجاز، وجال في خراسان، وخرج إلى ما وراء النهر، وكان يتجر في ملكه الحلال، وينفق على الصلحاء من إخوانه.

وقال الثعالبي رحمه الله: كان يشبه في عصرنا بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريسا وتأليفا، إلا أنه كان يقول شعراً حسناً وكان أبو عبيد مفحماً. ولأبي سليمان كتب من

تأليفه وأشهرها وأسيرها كتاب في غريب لحديث وهو في غاية الحسن والبلاغة.

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله: هو الإمام العلامة، الحافظ اللغوي، ... صاحب التصانيف.

من تصانيفه:

كان الإمام الخطابي صاحب التصانيف النافعة. فمنها:

الأول: **" تفسير أسامي الرب عز وجل "**، الثاني: **"الغنية عن الكلام وأهله"**، الثالث: **"شرح الأدعية المأثورة"**، الرابع: **"شرح البخاري"**، الخامس: **"العزلة"**، السادس: **"إصلاح غلط المحدثين"**، السابع: **"العروس"**، الثامن: **"أعلام الحديث"**، وغيرها.

وفاته:

توفي الإمام الخطابي ببست في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة.

مراجع الترجمة:

الأول: **"سير أعلام النبلاء"** (للذهبي)،

الثاني: **"يتيمة الدهر"** (للثعالبي)،

الثالث: **"معجم الأدباء"** (لياقوت الحموي)،

الرابع: **"الأعلام"** (للزركلي).

بسم الله الرحمن الرحيم. عصمنا الله وإياك أخي من الأهواء المضلة والآراء المغوية والفتن المحيرة، ورزقنا وإياك الثبات على السنة(٤)، والتمسك بها، ولزوم الطريقة المستقيمة التي درج عليها السلف(٥) وانتهجها بعدهم صالحو الخلف، وجنبنا وإياك مداحض

---

(٤) السنة لغة الطريقة. ثم أُطلقت على جميع منهج رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً ووصفاً وهمّاً. قال الإمام ابن رجب رحمه الله: والسنة : هي الطريقة المسلوكة ، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، وهذه هي السنة الكاملة ، ولهذا كان السلف قديما لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله. ("جامع العلوم والحكم"/ الحديث الثامن والعشرون/ ص٤٤٤/ ط. مكتبة أولاد الشيخ).

(٥) السلف لغة: كل من تقدم، وكل من سبقك. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: السلف المتقدم، قال تعالى: ﴿**فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**﴾ أي معتبرا متقدما –إلى قوله:– ولفلان سلف كريم أي آباء متقدمون جمعه أسلاف وسلوف. ("مفردات غريب القرآن" / للأصفهاني / ص ٢٣٩).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «**فاتقي الله واصبري فإني نعم السلف أنا لك**». (أخرجه البخاري (٦٢٨٥) ومسلم (٢٤٥٠)).

قال الإمام النووي رحمه الله: والسلف: المتقدم. ومعناه: أنا متقدم قدامك فتردين علي. ("المنهاج"/ للنووي/ ١٦/ ص ٧).

والسلف اصطلاحاً من الصدر الأول لهذه الأمة متقدموهم المذكورون في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**». (أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣)).

وجاء نحوه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعاً. (أخرجه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥)).

وجاء نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. (أخرجه مسلم (٢٥٣٤)).

وجاء نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً. (أخرجه مسلم (٢٥٣٦)).

فالسلف والمتقدمون اصطلاحاً هم صدر هذه الأمة، وهم من كان في حدود تاريخ ثلاثمائة.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: فالحد الفاصل بين المتقدم والمتأخر هو رأس سنة ثلاثمائة. ("ميزان الاعتدال" / ١/ ص ٤).

وقال الشيخ أحمد فريد رحمه الله: فالسلف: هم الصحابة، والتابعون، وتابعوهم من أهل القرون الخيرية الثلاثة الأول، عدا أهل البدع كالخوارج، والمعتزلة، والقدرية، والجهمية، وغيرهم من فرق الضلالة. والسلفيون: هم الذين يعتقدون معتقد السلف الصالح رضي الله عنهم، وينتهجون منهج السلف في فهم الكتاب والسنة. ("السلفية قواعد وأصول" / ص ٣).

وسئل الإمام الوادعي رحمه الله: من هم السلف؟ وهل العلماء بعد القرون المفضلة يُعدّون من السلف مثل: ابن كثير وشيخ الإسلام ابن تيمية وأمثالهم؟

البدع(٦) وبنيات طرقها العادلة عن نهج الحق وسواء الواضحة، وأعاذنا وإياك من حيرة الجهل، وتعاطي الباطل، والقول بما ليس لنا

فأجاب العلامة مقبل الوادعي: السلف المراد بهم: القرون المفضلة الثلاثة، وهؤلاء يعتبرون من أتباع السلف، ولو سميتهم سلفاً بإعتبار أن زمانهم قد سلف بالنظر إلينا فلا ينكر عليك هذا والله المستعان.

(انتهى من شريط "أسئلة شباب المحويت").

(٦) البدعة لغة كما قاله الجوهري رحمه الله: أبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال. والله تعالى بديع السموات والأرض. والبديع: المبتدع. ("الصحاح في اللغة" / ١/ ص٣٥).

وشرعاً: قال الجوهري رحمه الله: والبدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال. ("الصحاح في اللغة" / ١/ ص٣٥).

وقال الإمام محمد بن الوليد الطرطوشي رحمه الله: وهو ما لم يكن في عصر النبي مما فعله أو أقر عليه أو علم مع قواعد شريعته الإذن فيه وعدم النكير عليه نحو ما سنشرحه في الفصل الآتي عقيب هذا الفصل وفي معنى ذلك

به علم، والدخول فيما لا يعنينا، والتكلف لما قد كفينا الخوض فيه ونهينا عنه، ونعمنا وإياك بما علمنا، وجعله سبباً لنجاتنا، ولا جعله وبالاً علينا برحمته.

وقفت على مقالك أخي وليك الله بالحسنى، وما وصَفْتَه من أمر ناحيتك، وما ظهر بها من مقالات أهل الكلام(٧)

ما كان في عصر الصحابه رضى الله عنهم مما أجمعوا عليه قولا أو فعلا أو تقريراً. (كما في "الباعث على إنكار البدع والحوادث" / ص ٢٠).

فالبدعة هي التقرب إلى الله –عقيدة أو قول أو فعل- بما لم يشرعه الله.

(٧) تعريف علم الكلام عند أربابه: علم الكلام: الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته وأفعاله ومتعلقاته. ("غاية المرام في علم الكلام" / للآمدي / ص ٤).

قلت –مستعيناً بالله-: هكذا زعموا، غير أنهم لم يستسلموا لإرشاد الله وهدي رسوله ﷺ فخالفوا طريقة القرآن والسنة المستقيمة السهلة الميسّرة، وسلكوا طرقاً طويلة معوجّة متعبة كثيرة العلائق والعوائق والوبال.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق، وهو الخط المستقيم. فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن **الصراط المستقيم القريب،** إلى طريق منحرف طويل؟ والله تعالى فطر عباده على الصحة والاستقامة، إلا من اجتالته الشياطين فأخرجته عن فطرته التي فطر عليها . ("مجموع الفتاوى"/ ٦/ ص٥٦٩).

الشاهد قوله: كيف يعدل عن **الصراط المستقيم القريب،** إلى طريق منحرف طويل؟

وقال رحمه الله في شأن طريقة الفلسفة: هذا الذي قالوه، إما أن يكون باطلاً، وإما أن يكون تطويلاً يبعد الطريق على المستدل، فلا يخلو عن خطأ يصدّ عن الحق، أو **طريق طويل يتعب صاحبه** حتى يصل إلى الحق، مع إمكان وصوله **بطريق قريب،** كما كان يمثله بعض سلفنا بمنزلة من قيل له : أين أذنك؟ فرفع يده رفعاً شديداً ثم أدارها إلى أذنه اليسرى، وقد كان يمكنه الإشارة إلى اليمنى أو اليسرى من طريق مستقيم. وما أحسن ما وصف الله به كتابه بقوله: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ [الإسراء : ٩] ، فأقوم الطريق إلى أشرف المطالب ما بعث الله به رسوله، وأما طريق هؤلاء فهي مع

ضلالهم في البعض، واعوجاج طريقهم، وطولها في البعض الآخر إنما توصلهم إلى أمر لا ينجي من عذاب الله، فضلاً عن أن يوجب لهم السعادة، فضلاً عن حصول الكمال للأنفس البشرية بطريقهم . ("مجموع الفتاوى"/ ٩/ ص١٥٣).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: كونه هادياً إلى **الصراط المستقيم** وهو معرفة الحق والعمل به وهو **أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب** فإن الخط المستقيم هو أقرب خط موصل بين نقطتين وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص٦٩).

هذا البيان واضح. وقد اعترف أبو عبدالله الرازي في كتابه "أقسام اللذات" لما ذكر اللذة العقلية وأنها لذة العلم، وأن أعرف العلوم العلم بالله، اعترف بأن أقرب الطريق الموصل إلى الله هو طريق القرآن، فقال وهو في غاية الحسرة على عمره وطول بحثه:

نهاية إقدام العقول عقال * وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا * وحاصل دنيانا أذى ووبال

وخوض الخائضين فيها[٨]،

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولاً تروي غليلا **ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن**. اقرأ في الإثبات: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾. واقرأ في النفي: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾. ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

(نقله عنه شيخ الإسلام في كتابه "بيان تلبيس الجهمية"/ ١/ ص ١١٩).

[٨] وكثير من الأذكياء الخائضين في الفلسفة لم يجدوا الحق المقنع في علم الكلام بل عثروا على بطلانه وآفاته فندموا على ضياع أعمارهم في المباحث الكلامية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وهذا أبو حامد الغزالي ـ مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة، وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ـ ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف "إلجام العوام عن علم الكلام".

-ثم ذكر كلام الرازي الآنف ذكره، إلى أن قال:-

وهذا إمام الحرمين، ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف . وكان يقول : يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام ! فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه . والآن : إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي أو قال : عقيدة عجائز نيسابور .

وكذلك قال أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وكان ينشد :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها * وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر * على ذقن، أو قارعا سن نادم

وابن الفارض من متأخري الاتحادية، صاحب القصيدة التائية المعروفة بـ: "نظم السلوك"، وقد نظم فيها الاتحاد نظما رائق اللفظ، فهو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب . وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك ! الله

أعلم بها وبما اشتملت عليه وقد نفقت كثيرا، وبالغ أهل العصر في تحسينها والاعتداد بما فيها من الاتحاد لما حضرته الوفاة أنشد :

إن كان منزلتي في الحب عندكم * ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي

أمنية ظفرت نفسي بها زمنا * اليوم أحسبها أضغاث أحلام.

(انتهى النقل من "مجموع الفتاوى" / ٤/ ص٧٢-٧٤).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولهذا لما وصل حذاقهم في طريقة النظر إلى آخرها ورأوا غوائلها وآفاتها ورأوها لا توصل إلى المطلوب الصحيح رجعوا إلى طريقة الوحي والآثار النبوية كما صرح به الرازي، وابن أبي الحديد، وأبو حامد، وأبو المعالي، وغيرهم، واعترفوا في آخر الأمر أن الطرق كلها مسدودة إلا طريق الوحي والأثر . ("الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة"/ ٢ / ٧٤).

وقال شيخنا العلامة يحيى بن علي الحجوري حفظه الله: وأنت لو قرأت كتاب "ذم الكلام" لأبي إسماعيل الهروي وقد كان منهم ثم تاب، لرأيت فيه ما هم عليه من الضلال المبين، مما جعل كثيرًا منهم يندم على ضياع عمره غاية الندم، ويذم علم الكلام غاية الذم. فابن رشد الحفيد قد كان منهم ثم تاب

وميل بعض منتحلي السنة إليها، واغترارهم بها[٩]، واعتذارهم في ذلك بأن الكلام وقاية للسنة وجنة لها يذب به عنها ويذاد بسلاحه

وألف كتاب "تَهافت التهافت". والغزالي حين تاب ألف كتاب "تَهافت الفلاسفة". (كما في "الصبح الشارق" / للشيخ يحيى الحجوري).

(٩) بعض المنتحلين للسنة لم يكتفوا بهداية القرآن والسنة فيقرأون كتب أهل الكلام فيضلّون الطريق. فمنهم: بشر المريسي، ومحمد الشهرستاني وغيرهما.

قال ابن أرسلان في " تاريخ خوارزم " في شأن محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: عالم كيس متفنن، ولولا ميله إلى أهل الإلحاد وتخبطه في الاعتقاد، لكان هو الإمام، وكثيراً ما كنا نتعجب من وفور فضله كيف مال إلى شيء لا أصل له ؟! نعوذ بالله من الخذلان، وليس ذلك إلا لإعراضه عن علم الشرع، واشتغاله بظلمات الفلسفة. ("سير أعلام النبلاء"/ ٢٠ / ص ٢٨٨).

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله في بشر المريسي: كان بشر من كبار الفقهاء، أخذ عن القاضي أبي يوسف، وروى عن حماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة. ونظر في الكلام، فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم، وكفره عدة. ("سير أعلام النبلاء" / ١٠/ ص١٩٩-٢٠٠).

عن حرمها. وفهمتُ ما ذكرته من ضيق صدرك بمجالستهم وتعذر الأمر عليك في مفارقتهم لأن موقفك بين أن تسلم لهم ما يدعونه من ذلك فتقبله؛ وبين أن تقابلهم على ما يزعمونه فتردّه وتنكره، وكلا الأمرين يصعب عليك.

أما القبول فلأن الدين يمنعك منه، ودلائل الكتاب والسنة تحول بينك وبينه. وأما الرد والمقابلة فلأنهم يطالبونك بأدلة العقول ويؤاخذونك بقوانين الجدل ولا يقنعون منك بظواهر الأمور[١٠].

---

[١٠] إن أهل الكلام لا يقبلون الاستدلال بالقرآن والسنة وأن دلالتها عندهم تفيد الظن لا العلم اليقيني، وإن قالوا بأنه –أو بعضه– قطعي الثبوت. وإنما المعتمد عندهم هو العقل. وهذا باطل كما هو معروف، وكما سيأتي بيان ذلك.

قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن أمان الجامي رحمه الله في الردّ على هؤلاء وأمثالهم: إذاً فما معنى الإيمان بالقرآن وبمن أنزل عليه القرآن؟! إن لم يكن معناه التصديق بأن القرآن كلام الله، وأن السنة وحي من الله إلى رسوله ﷺ وأن الغرض من إنزالهما هو العمل بهما عقيدة وأحكاماً وأخلاقاً وسلوكاً ثم تطبيق ذلك عملياً، هذا هو المعنى الصحيح للإيمان بالكتاب والسنة.

وسألتني أن أمدّك بما يحضرني في نصرة الحق مِن علم وبيان، وفي رد مقالة هؤلاء القوم من حجة وبرهان، وأن أسلك في ذلك طريقة لا يمكنهم دفعها ولا يسوغ لهم من جهة العقل جحدها وإنكارها.

ولهذا نرى أن عبارة القوم ينقض آخرُها أولَها، إذ لا معنى لكونها قطعية الثبوت ظنية الدلالة إلا رفض النصوص بهذا الأسلوب المخدّر، هذا ما نفهمه من تلك العبارة التقليدية التي يرددها بعض علماء الكلام، وبعض الأصوليين الذين تأثروا بعلم الكلام، وهي قولهم: (إن الأدلة اللفظية قطعية الثبوت ظنية الدلالة) فخلافهم لا تأثير له في الإجماع لأنهم قد اتبعوا غير سبيل جمهور أهل العلم الذين يرون أن الأدلة النقلية هي العمدة في جميع المسائل الدينية، وتعتبر الأساس في هذا الباب وغيره، والأدلة العقلية تابعة لها، وسوف لا تخالفها عند حسن التصرف فيهما. ("الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه"/ للشيخ الجامي/ ص ٣٩).

فرأيت إسعافك به لازماً في حق الدين وواجب النصيحة لجماعة المسلمين فإن الدين النصيحة[١١].

---

(١١) كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾. [**العصر: ١-٤**].

قال الإمام الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه، من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه. ("جامع البيان"/ ٢٤/ ص٥٩٠).

وعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**». (أخرجه مسلم (كتاب الإيمان/ باب أن الدين النصيحة/ (٥٥) / دار ابن الجوزي).

قال الإمام الذهبي رحمه الله: فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله: «**الدين النصيحة**»، فمن لم ينصح لله وللائمة وللعامة، كان ناقص الدين. وأنت لو دعيت، يا ناقص الدين، لغضبت. فقل لي: متى نصحت لهؤلاء ؟ كلا والله، بل ليتك تسكت، ولا تنطق، أولا تحسن لإمامك الباطل، وتجرئه على الظلم وتغشه. فمن أجل ذلك سقطت من عينه، ومن أعين المؤمنين. فبالله قل لي: متى يفلح من كان يسره ما يضره ؟ ومتى يفلح من لم يراقب مولاه ؟ ومتى يفلح من

دنا رحيله، وانقرض جيله، وساء فعله وقيله ؟ فما شاء الله كان، وما نرجو صلاح أهل الزمان، لكن لا ندع الدعاء، لعل الله أن يلطف، وأن يصلحنا. آمين. ("سير أعلام النبلاء" / ١١/ ص ٥٠٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه**». (أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وإسحاق بن راهويه (١/ ٣٤٠)، والبخاري في "الأدب المفرد" (رقم (٢٥٩)، وغيرهم، وهو **حديث حسن**).

وقال الإمام البربهاري رحمه الله: ولا يحل أن تكتم النصيحة للمسلمين – برّهم وفاجرهم – في أمر الدين، **فمن كتم فقد غشّ المسلمين، ومن غشّ المسلمين فقد غشّ الدين**، ومن غشّ الدين فقد خان الله ورسوله والمؤمنين. ("شرح السنة" / ص٢٩-٣٠/ دار الآثار).

واعلم يا أخي أدام الله سعادتك أن هذه الفتنة قد عمت اليوم وشملت وشاعت في البلاد واستفاضت، فلا يكاد يسلم من رهج غبارها إلا من عصمه الله تعالى[١٢].

---

(١٢) هكذا الأباطيل إذا قلّ من تكلم فيها وحذّر منها فإنها تكبر واستفحل أمرها حتى رآها الناس حقاً واتخذوها ديناً.

قال الإمام ابن قتيبة رحمه الله: وإنما يقوى الباطل إذا تُبْصِره وتمسك عنه. ("الاختلاف في اللفظ"/ له/ ص٦١/ دار الراية).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوي كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك مثل : دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين . كان أهل السنة في تلك الأيام أقوى وأكثر وأهل البدع أذل وأقل . فإن المهدي قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصي عدده إلا الله، والرشيد كان كثير الغزو والحج. ("مجموع الفتاوى"/ ٤/ ص٢٠).

وذلك مصداق قول النبي ﷺ: «**إن الدين بدأ غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء**»[(١٣)].

وقال الإمام ابن باز رحمه الله: وإنما يعمل أهل الباطل وينشطون عند اختفاء العلم وظهور الجهل ، وخلو الميدان ممن يقول : قال الله وقال الرسول، فعند ذلك يستأسدون ضد غيرهم وينشطون في باطلهم ، لعدم وجود من يخشونهم من أهل الحق والإيمان وأهل البصيرة. ("مجموع فتاوى و مقالات ابن باز" / ٤ / ص ٧٥/ دار أصداء المجتمع).

وقال الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيم رحمه الله: واجب العالم الديني أن ينشط إلى الهداية كلما نشط الضلال، وأن يسارع إلى نصرة الحق كلما رأى الباطل يصارعه، وأن يحارب البدعة والشر والفساد قبل أن تمدّ مدّها، وتبلغ أشُدَّها، وقبل أن يتعوّدها الناس، فترسخ جذورها في النفوس، ويعسر اقتلاعها. ("الآثار"/ له/ كما في "الصوارف عن الحق"/ لحمد بن إبراهيم العثمان/ ص١٤٣/ دار الإمام أحمد).

(١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء**». (أخرجه مسلم (٣٨٩)).

وصدر هذه الأمة لما اتبعوا الحق وصبروا عليه مع شدة غربته وعظيم بلائه وتنوع محنه نالوا قصب الخيرية علو الرفعة. وقد سبق الكلام على فضل الصحابة رضي الله عنهم.

قال القرطبي رحمه الله: وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب: إن قرنه إنما فضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار، وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم، ومما يشهد لهذا قوله عليه السلام: «**بدأ الاسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء**». ("الجامع لأحكام القرآن"/ ٤/ ص١٧٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فأهل الإسلام في الناس غرباء والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء وأهل العلم في المؤمنين غرباء وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله عز و جل فيهم: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾ فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله

ودينه –إلى قوله:– فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله أهلها وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريباً وأنه سيعود غريباً كما بدأ، وأن أهله يصيرون غرباء .

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ووقت دون وقت وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقاً فإنهم لم يأووا إلى غير الله ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ولم يدعوا إلى غير ما جاء به وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم: «**فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده**». فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا فوليه الله ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه. ("مدارج السالكين"/ ٣/ ص ١٩٥-١٩٦).

ومشقة الثبات على الحق في وقت غربة السنة سبب لتضعيف الأجور والدرجات عند الله تعالى. عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعا: «**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنياً مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك – يعني بنفسك – ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر. للعامل**

فنحن اليوم في ذلك الزمان وبين أهله فلا تنكر[(١٤)] ما نشاهده منه، وسلوا الله العافية من البلاء واحمده على ما وهب لك من السلامة وحاطك به من الرعاية وجميل الولاية.

ثم إني تدبرت هذا الشأن فوجدت عظم السبب فيه أن الشيطان صار اليوم بلطيف حيلته يسوّل لكل من أحس من نفسه بزيادة فهم وفضل ذكاء وذهن، ويوهمه أنه إنْ رضي في عمله ومذهبه بظاهر من السنة واقتصر على واضح بيان منها كان أسوة للعامة وعدّ واحداً من الجمهور والكافة، فإنه قد ضل فهمه واضمحل لطفه وذهنه. فحركهم بذلك على التنطع في النظر[(١٥)]،

فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله ».(أخرجه أبو داود (٤٣٤٣)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) وغيرهم/ **حسن لغيره**).

[(١٤)] يعني به: فلا تستغرب.

[(١٥)] التنطع في الدين مذموم. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطعون قالها ثلاثاً**». (أخرجه نسلن (٢٦٧٠)).

قال الإمام ابن بطة رحمه الله: الله الله إخواني يا أهل القرآن، ويا حملة الحديث لا تنظروا فيما لا سبيل لعقولكم إليه، ولا تسألوا عما لم يتقدمكم السلف الصالح من علمائكم إليه، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا قوة بأبدانكم الضعيفة، ولا تنقروا، ولا تبحثوا عن مصون الغيب، ومكنون العلوم، **فإن الله جعل للعقول غاية تنتهي إليها، ونهاية تقصر عندها**، فما نطق به الكتاب، وجاء به الأثر فقولوه، وما أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه، ولا تحيطوا الأمور بحيط العشوا حنادس الظلماء بلا دليل هادٍ، ولا ناقد بصير. أتراكم أرجح أحلاماً، وأوفر عقولاً من الملائكة المقربين حين قالوا: ﴿**لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾. إخواني، فمن كان بالله مؤمنا فليردد إلى الله العلم بغيوبه، وليجعل الحكم إليه في أمره، فيسلك العافية، ويأخذ بالمندوحة الواسعة، ويلزم المحجة الواضحة، والجادة السابلة، والطريق الآنسة. فمن خالف ذلك وتجاوزه إلى الغمط بما أمر به، والمخالفة إلى ما نهي عنه، يقع والله في بحور المنازعة ، وأمواج المجادلة، ويفتح على نفسه أبواب الكفر بربه ، والمخالفه لأمره، والتعدي لحدوده. والعجب لمن خلق من نطفة من ماء مهين فإذا هو خصيم مبين، كيف لا يفكر في عجزه عن معرفة خلقه؟ أما تعلمون أن الله قد أخذ عليكم ميثاق الكتاب، أن لا تقولوا على الله إلا الحق؟ فسبحان الله أني تؤفكون. ("الإبانة الكبرى" / لابن بطة / ١/ ص ٣٦٣).

والتبدع لمخالفة السنة والأثر ليبينوا بذلك من طبقة الدهماء ويتميزوا في الرتبة عمن يرونه دونهم في الفهم والذكاء، فاختدعهم بهذه الحجة حتى استزلهم عن واضح المحجة وأورطهم في شبهات تعلقوا بزخارفها وتاهوا عن حقائقها، فلم يخلصوا منها إلى شفاء نفس، ولا قبلوها بيقين علم[١٦].

---

[١٦] إن كثيراً من الأذكياء المغرورين الذين لم يكتفوا بهدي السلف يزعمون أن طريقة أهل الكلام أعلم وأحكم من هدي السلف في نصرة الإسلام وقهر أعداء الله، وهم في واقع الأمر ضلّوا الطريق وأفسدوا عقائد المسلمين من حيث لا يشعرون، وفتحوا باباً عظيماً لجنود الشيطان على المسلمين.

قال فيهم شيخ الإسلام رحمه الله: وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية، فلا للإسلام نصروا، ولا لعدوه كسروا، بل قد خالفوا السلف والأئمة، وخالفوا العقل والشرع، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم، من الفلاسفة والدهرية والملاحدة بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول، وثبت لهم الأصل، ولكن ضيّعوا الأصول فحرموا الوصول، والأصول: اتباع ما جاء به الرسول. ("مجموع الفتاوى" / ١٣/ ص١٥٧/ دار الوفاء/ إحالة).

ولما رأوا كتاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه[١٧]؛

---

(١٧) أدلة الكتاب والسنة لا تدل إلا على الحق لأن الله تعالى أنزلها لإقامة الحق وبيانه ونصرته، لا لنصرة الباطل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لا ريب أن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح لا عقلي ولا شرعي. ("الجواب الصحيح"/ ٢/ ص٢٩٨).

فالأدلة نصبها الله في العالم لنصرة الحق لا الباطل، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الله لا ينصر إلا الحق. ("إعلام الموقعين"/ ٢/ ص٤٣١/ ط. دار الحديث).

بل الأدلة التي أظهرها أهل الباطل لنصرة أباطيلهم فإنها عند التأمل لا تدل على ما أرادوا، بل صارت حجة عليهم لا لهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: **وهكذا أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية ولا عقلية إلا وهي عند التأمل حجة عليهم لا لهم**. ("مجموع الفتاوى"/ ٦/ ص٢٥٤).

ضربوا بعض آياته ببعض وتأولوها على ما سنح لهم في عقولهم(١٨) واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم، ونصبوا العداوة

فلذلك لا ينبغي لنا أن نقول: (لكل طائفة دليل يستدلون به فلا يتكلم بعضنا في بعض)، لأن الآية أو الحديث الذي استدلوا به لنصرة آرائهم ليس دليلاً لهم في الحقيقة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: كثير مما يسمى دليلاً ليس بدليل أن ما يسميه الناس دليلا من العقليات والسمعيات ليس كثير منه دليلا وإنما يظنه الظان دليلا وهذ متفق عليه بين العقلاء فإنهم متفقون على أن ما يسمي دليلا من العقليات والسمعيات قد لا يكون دليلا في نفس الأمر. ("درء تعارض العقل والنقل" / ١/ ص١٢٦).

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: وقد علم العلماء أن كل دليل فيه اشتباه وإشكال ليس بدليل في الحقيقة حتى يتبين معناه ويظهر المراد منه ويشترط في ذلك أن لا يعارضه أصل قطعي. ("الاعتصام"/ ص ١٨١).

(١٨) هذه من المصائب: تقديم العقل على النقل الصحيح، مع أن الدليل السمعي أرجح من الدليل العقلي.

لأخبار رسول الله ﷺ ولسنته المأثورة عنه، وردوها على وجوبها وأساؤا في نقلتها القالة ووجهوا عليهم الظنون، ورموهم

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فما أخبر به الصادق المصدوق هو ثابت في نفسه سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه وسواء صدقه الناس أو لم يصدقوه كما أن رسول الله حق وإن كذبه من كذبه كما أن وجود الرب تعالى وثبوت أسمائه وصفاته حق سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه. فلا يتوقف ذلك على وجودنا فضلاً عن علومنا وعقولنا: فالشرع المنزل من عند الله مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا. فإذا علم العقل ذلك حصل له كمال لم يكن قبل ذلك، وإذا فقده كان ناقصاً جاهلاً. (انتهى من "الصواعق المرسلة" / ١/ ص ٣١٦).

بالتزندق[١٩]، ونسبوهم إلى ضعف المنة وسوء المعرفة لمعاني ما يروونه من الأحاديث والجهل بتأويله[٢٠].

---

(١٩) قال ابن منظور رحمه الله: الزِّنْدِيقُ القائل ببقاء الدهر فارسي معرب وهو بالفارسية زَنْدِ كِرَايْ يقول بدوام بقاء الدهر، والزَّنْدَقةُ الضِّيقُ وقيل الزِّنْدِيقُ منه لأنه ضيّق على نفسه التهذيب الزِّنْدِيقُ معروف وزَنْدَقَتُه أنه لا يؤمن بالآخرة ووَحْدانيّة الخالق. ("لسان العرب" / ١٠/ ص ١٤٧).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: أن الزنديق فى عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ، **وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره** سواء أبطن دينا من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلاً جاحدًا للصانع والمعاد والأعمال الصالحة. ومن الناس من يقول: الزنديق هو الجاحد المعطل. وهذا يسمى الزنديق فى اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ونقلة مقالات الناس، ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه هو الأول ("مجموع الفتاوى"/ ٧ / ص ٤٧١-٤٧٢).

(٢٠) قال الإمام البربهاري رحمه الله: وكان الأمر مستقيماً حتى كانت الطبقة الرابعة: انقلب الزمان، وتغير الناس جدًا، وفشت البدع، وكثر الدعاة إلى غير سبيل الحق والجماعة، ووقعت المحنة في كل شيء لم يتكلم به رسول الله ﷺ ولا

ولو سلكوا سبيل القصد ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف لوجدوا برد التقى وروح القلوب، ولكثرت البركة، وتضاعف النماء، وانشرحت الصدور ولأضاءت فيها مصابيح النور[(٢١)].

أحد من الصحابة، ودعوا إلى الفرقة وقد نهى الله عز وجل عن الفرقة، وكفّر بعضهم بعضاً، وكل دعاء إلى رأيه وإلى تكفير من خالفه، فضلَّ الجهال والرعاع ومن لا علم له، وأطمعوا الناس في شيء من أمر الدنيا، وخوّفوهم عقاب الدنيا، فاتبعهم الخلق على خوف في دنياهم ورغبة في دنياهم، فصارت السنة وأهل السنة مكتومين، وظهرت البدعة وفشت، وكفروا مِن حيث لا يعلمون من وجوه شتى، ووضعوا القياس، وحملوا قدرة الرب وآياته وأحكامه وأمره ونهيه على عقولهم وآرائهم، فما وافق عقولهم قبلوه، وما خالف عقولهم ردّوه، فصار الإسلام غريباً والسنة غريبة وأهل السنة غرباء في جوف ديارهم اهـ. ("شرح السنة" / ص٣٢-٣٣/ دار الآثار).

(٢١) إنما الهدى يكون في اتباع الوحي من الله، لا من آراء اليونانيين الذين هم كفار لم يعرفوا الله ولم يتعرفوا برسالة نبيه محمد ﷺ. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقال سبحانه: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ**

الله مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال جل ذكره: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

يستفاد هذه الأدلة – ومن أصدق من الله حديثاً– أن من اتبع الوحي من الله يحصل على العلم والهدى والبركات وبرد اليقين وشفاء الصدور، ومن اتبع آراء الناس المخالفة لوحي الله يحصل على الظنون والضلال والشقاء. قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

وجعلتم الوحيين غير مفيدة * للعلم والتحقيق والبرهان،

لكن عقول الناكبين عن الهدى * لها تفيد ومنطق اليونان،

وجعلتم الايمان كفرا والهدى * عين الضلال وذا من الطغيان.

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[٢٢].

("الكافية الشافية"/ ابن القيم / ١/ ص ٧٦).

[٢٢] ما هو الصراط المستقيم؟ هو الطريق القويم الموصل إلى مرضاة الله وجنات النعيم. وهو جميع ما جاء به الله ورسوله في الكتاب والسنة لهداية الناس. قال الله تعالى فيه: ﴿**قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الأحقاف: ٣٠].

قال القرطبي رحمه الله: ﴿**يهدي إلى الحق**﴾ دين الحق. ﴿**وإلى طريق مستقيم**﴾ دين الله القويم. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١٦/ ص٢١٧).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقولهم: ﴿**يهدي إلى الحق**﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿**وإلى طريق مستقيم**﴾ في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا**﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿**يهدي إلى الحق**﴾ في الاعتقادات، ﴿**وإلى طريق مستقيم**﴾ أي: في العمليات. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٧/ ص ٣٠٣).

واعلم أدام الله توفيقك أن الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام وهذا النوع من النظر عجزاً عنه، ولا انقطاعاً دونه، وقد كانوا ذوي عقول وافرة وأفهام ثاقبة[٢٣].

وقال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هداية الله إلى صراط مستقيم: وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جِنانه وكرامته. ("جامع البيان"/ للطبري / ١٥/ ص ٥٩).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الصراط المستقيم هو **أمور باطنة في القلب** : من اعتقادات ، وإرادات ، وغير ذلك ، **وأمور ظاهرة** : من أقوال ، أو أفعال قد تكون عبادات ، وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس ، والنكاح والمسكن ، والاجتماع والافتراق ، والسفر والإقامة ، والركوب وغير ذلك . ("اقتضاء الصراط المستقيم" / ١ / ص ٩٢).

[٢٣] إن الله تعالى قد اختار أصحاب رسول الله ﷺ قدوة لهذه الأمة بعد نبيهم، وجعل دينهم وإيمانهم معيار الحق والهدى والرضا والنجاة. قال تعالى: **﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ**

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. و قال تعالى: **﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**. **[البقرة: ١٣٨]**.

فلا أهدى من طريقة أصحاب رسول الله ﷺ، وهم حراس هذه الأمة من الضلالة بإذن الله. فلو اقتصر الناس على اتباعهم لاهتدوا ونجوا.

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا** ». (أخرجه مسلم (٦٨١)).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء – قال – فجلسنا. فخرج علينا فقال: «**ما زلتم ها هنا**». قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء. قال: «**أحسنتم أو أصبتم**». قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرا مما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «**النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**». (أخرجه مسلم (٢٥٣١)).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يبعث منهم البعث فيقولون: انظروا هل تجدون فيكم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فيوجد الرجل فيفتح لهم به. ثم يبعث البعث الثاني فيقولون: هل فيهم من رأى أصحاب النبي ﷺ فيفتح لهم به. ثم يبعث البعث الثالث فيقال: انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي ﷺ ثم يكون البعث الرابع فيقال: انظروا هل ترون فيهم أحدا رأى من رأى أحداً رأى أصحاب النبي ﷺ فيوجد الرجل فيفتح لهم به** ». (أخرجه مسلم (٢٥٣٢)).

وقد كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك – بإذن الله – عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، **فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها الخطإ والزلل والحمق والتعمق**. فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه ولئن قلتم إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من

وقد كان وقع في زمانهم هذه الشبه والآراء وهذه النحل والأهواء. وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تحققوا من فتنتها

مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم. (أخرجه أبو داود (٤٦١٢)/ دار السلام/ **سنده صحيح**).

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: لو كان هذا خيراً ما خصصتم به دون أسلافكم، فإنه لم يدخر عنهم خير خبئ لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب نبينا عليه الصلاة والسلام، والذين اختارهم الله عز وجل، وبعثه فيهم، ووصفه بهم فقال جل وعلا: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة. (كما في "الشريعة" (للآجري (٣٠٦)/ دار الكتاب العربي) والخلال في "السنة" (٦٧٢) وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (١٢١٤) وصححه شيخنا أبو عمرو الحجوري حفظه الله).

وحذّروه من سوء مغبتها[٢٤]، وقد كانوا على بينة من أمرهم، وعلى بصيرة من دينهم لما هداهم الله له من توفيقه وشرح به صدورهم من نور معرفته، ورأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته وتوقيف السنة وبيانها غناء ومندوحة عما سواهما، وأن الحجة قد وقعت بهما والعلة أزيحت بمكانهما[٢٥].

---

[٢٤] قد نهى أئمة المسلمين من علم الكلام لأنه يفسد أكثر مما يصلح. قال الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي رحمه الله: بل صرّح العلماء من أهل الحديث المشهورون بتحريم الكلام وقالوا: هو محدث وبدعة في الدين، وقالوا: لو كان طريقاً صحيحاً لمعرفة الله سبحانه لنبّه الله سبحانه عليه في القرآن ولأمر النبي ﷺ به وتكلمت به الصحابة رضي الله عنهم. وقد علّمهم النبي ﷺ ودلّهم على جميع الأحكام، فلو كان الكلام من مهمات الدين لنبّهه النبي ﷺ. ("الانتصار"/ ص١٢٩/ ط. أضواء السلف).

[٢٥] لا شك أن أرحم الراحمين أحكم الحاكمين قد بيّن الحق في كتابه وعلى سنة رسوله ﷺ.

لما سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن مسألة صفات الله أجاب رحمه الله: الحمد لله رب العالمين، قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ والسابقون

الأولون: من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره؛ فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له بأنه بعثه داعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا وأمره أن يقول: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾. فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته - محال مع هذا وغيره: أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز عليه وما يمتنع عليه. فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا .

ومن المحال أيضا أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة وقال: «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»، وقال فيما صح عنه أيضا: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**». وقال أبو ذر: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما. وقال عمر بن الخطاب: **قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فذكر بدء الخلق؛ حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه**» رواه البخاري.

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب. بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام ثم إذا كان قد وقع ذلك منه: فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه. ثم من المحال أيضا أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا

الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق. وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه؛ أعني بيان ما ينبغي اعتقاده لا معرفة كيفية الرب وصفاته. وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر. وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي - الذي هو من أقوى المقتضيات - أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق وأشدهم إعراضا عن الله وأعظمهم إكباباً على طلب الدنيا والغفلة عن ذكر الله تعالى؛ فكيف يقع في أولئك؟ وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه: فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم. ثم الكلام في هذا الباب عنهم: أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى وأضعافها يعرف ذلك من طلبه وتتبعه ولا يجوز أيضا أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف؛ بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها: من أن "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم" - وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعني بها معنى صحيحا. فإن هؤلاء

فلما تأخر الزمان بأهله وفترت عزائمهم في طلب حقائق علوم الكتاب والسنة وقلت عنايتهم بها، واعترضهم الملحدون بشبههم والمتحذلقون بجدلهم[٢٦].

المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف: إنما أتوا من حيث ظنوا: أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**﴾ وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. فهذا الظن الفاسد أوجب "تلك المقالة" التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف؛ فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم. وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ٥/ ص٥-٩).

[٢٦] قال شيخ الإسلام رحمه الله: كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ، ونقص إيمانهم، عوضوا ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك وغيره اهـ. ("اقتضاء الصراط المستقيم"/ ٢/ ص ٢٤٣/ مكتبة الرشد).

حسبوا أنهم إن لم يردوهم عن أنفسهم بهذا النمط من الكلام ولم يدافعوهم بهذا النوع من الجدل لم يقووهم ولم يظهروا في الحجاج عليهم[٢٧]، فكان ذلك ضلة من الرأي وغبناً منه وخدعة من الشيطان والله المستعان.

فإن قال هؤلاء القوم: فإنكم قد أنكرتم الكلام ومنعتم استعمال أدلة العقول، فما الذي تعتمدون عليه في صحة أصول دينكم؟ ومن أي طريق تتوصلون إلى معرفة حقائقها؟ وقد علمتم أن الكتاب لم يعلم حقه وأن الرسول لم يثبت صدقه إلا بأدلة العقول وأنتم قد نفيتموها.

---

[٢٧] إن من أبرز علامات أهل الكلام هو التعمق في الجدال. وقد كرهه أئمة أهل السنة والجماعة. قال الإمام الذهبي رحمه الله: وصحّ عن الدارقطني أنه قال: ما شيء أبغض إلي من علم الكلام. قلت: لم يدخل الرجل أبداً في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سلفياً. ("سير أعلام النبلاء" /١٦/ ص ٤٥٧).

قلنا: إنا لا ننكر أدلة العقول والتوصل بها إلى المعارف[٢٨]،

---

[٢٨] إن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، بهما يتعاونان على معرفة الحق وإظهاره.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: إن الحجج السمعية مطابقة للمعقول والسمع الصحيح لا ينفك عن العقل الصريح بل هما أخوان نصيران وصل الله بينهما وقرن أحدهما بصاحبه فقال تعالى : ﴿**ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فذكر ما ينال به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل وقال تعالى : ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك: ١٠]، فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل. وقال تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ [يونس: ٦٧]، ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ {الرعد: ٤]، وقال: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد: ٢٤]، فدعاهم إلى استماعه بأسماعهم وتدبره بعقولهم. ومثله قوله: ﴿**أفلم يدبروا القول**﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ [ق: ٣٧].

فجمع سبحانه بين السمع والعقل وأقام بهما حجته على عباده فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلاً. فالكتاب المنزل والعقل المدرك حجة الله على خلقه وكتابه هو الحجة العظمى فهو الذي عرفنا ما لم يكن لعقولنا سبيل إلى استقلالها بإدراكه أبداً، فليس لأحد عنه مذهب ولا إلى غيره مفزع في مجهول يعلمه ومشكل يستبينه وملتبس يوضحه فمن ذهب عنه فإليه يرجع ومن دفع حكمه فبه يحاج خصيمه إذ كان بالحقيقة هو المرشد إلى الطرق العقلية والمعارف اليقينية التي بالعباد إليها أعظم حاجة. فمن رد من مدعي البحث والنظر حكومته ودفع قضيته فقد كابر وعاند ولم يكن لأحد سبيل إلى إفهامه ولا محاجته ولا تقرير الصواب عنده وليس لأحد أن يقول إني غير راض بحكمه بل بحكم العقل، فإنه متى رد حكمه فقد رد حكم العقل الصريح وعاند الكتاب والعقل. ("الصواعق المرسلة"/ ١/ ص١٤٣-١٤٤).

ولكنا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض[٢٩] وتعلقها بالجواهر[٣٠] وانقلابها فيها على حدوث العالم وإثبات الصانع، ونرغب عنها إلى ما هو أوضح بيانا وأصح برهانا. وإنما هو الشيء أخذتموه عن الفلاسفة وتابعتموهم عليه، وإنما سلكت الفلاسفة هذه الطريقة لأنهم لا يثبتون النبوات

---

[٢٩] الأعراض جمع العَرض. وفي "لسان العرب" (٧/ ص ١٦٥): والعَرَضُ في الفلسفة ما يوجد في حامله ويزول عنه من غير فساد حامله ومنه ما لا يَزُولُ عنه فالزّائِل منه كأُدْمةِ الشُّحُوبِ وصفرة اللون وحركة المتحرّك وغيرُ الزائل كسَواد القارِ والسَّبَجِ والغُرابِ. انتهى.

وفي "تاج العروس" (ص ٤٦٥٧): العرض : "اسم لما دوام له" وهو مقابل الجوهر. وقال في نفس الصفحة: وفي "البصائر": العرض محركة : ما لا يكون له ثبات . ومنه استعار المتكلمون العرض لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والطعم . انتهى.

[٣٠] الجواهر جمع الجوهر. وفي "المعجم الوسيط" (١/ ٣١٢): و في الفلسفة: ما قام بنفسه. و يقابله العرض، و هو ما يقوم بغيره. واحدته جوهرة (ج) جواهر. انتهى.

ولا يرون لها حقيقة(٣١)، فكان أقوى شيء عندهم في الدلالة على إثبات هذه الأمور ما تعلقوا به من الاستدلال بهذه الأشياء.

---

(٣١) فكيف نطلب علم الدين ونتلقى معرفة الله من اليونانيين الذين هم لم يعرفوا الله ولم يمؤمنوا بأنبيائه؟ هل هم مسلمون؟ أنترك كلام ربنا عز وجل، وتبليغ جبريل عليه السلام، ورسالة محمد ﷺ لقول أهل اليونان وأتباعهم؟ فبئس للظالمين بدلاً.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

وخيامنا مضروبة بمشاعر الـ * ـوحيين من خبر ومن قرآن

وخيامكم مضروبة بالتيه فالسـ* ـكان كل ملدد حيران

هذه شهادتهم على محصولهم * عند الممات وقولهم بلسان

والله يشهد أنهم أيضا كذا * تكفي شهادة ربنا الرحمن

ولنا المساند والصحاح وهـ * ـذه السنن التي نابت عن القرآن

ولكم تصانيف الكلام وهذه الـ * آراء وهي كثيرة الهذيان

شبه يكسر بعضها بعضا كبيـ * ـت من زجاج خرّ للأركان

فأما مثبتو النبوات فقد أغناهم الله تعالى عن ذلك وكفاهم كلفة المؤونة في ركوب هذه الطريقة المنعرجة التي لا يؤمن العنت على راكبها والانقطاع على سالكها.

وبيان ما ذهب إليه السلف من أئمة المسلمين في الاستدلال على معرفة الصانع وإثبات توحيده وصفاته وسائر ما ادعى أهل الكلام تعذر الوصول إليه إلا من الوجه الذي يذهبون إليه، ومن الطريقة التي يسلكونها(٣٢)، ويزعمون أن من لم يتوصل إليه من تلك

هل ثم شيء غير رأي أو كلا * م باطل أو منطق اليونان

ونقول قال الله قال رسوله * في كل تصنيف وكل مكان

لكن تقولوا قال ارسطو وقا * ل ابن الخطيب وقال ذو العرفان.

("الكافية الشافية" / ٢/ ص ٤٦).

(٣٢) زعم كثير من المتكلمين أن من لم يفهم علم الكلام لم يفهم الدين كما ينبغي. وهذا الكلام باطل، لأن رسول الله ﷺ هو أعلم الناس بالله وبدينه ولم يعلّم الناس علم الكلام. ثم أصحابه رضي الله عنهم هم أعلم هذه الأمة بالله وبدينه

ولم يدرسوا علم الكلام، وكذلك علماء السلف بعدهم. هذا بخاري أهل المغرب، ابن عبد البر رضي الله، لم يدرس علم الكلام.

قال الإمام الذهبي رحمه الله في ترجمة ابن عبد البر: وقال الحميدي: أبو عمر فقيه حافظ، مكثر، عالم بالقراءات وبالخلاف وعلوم الحديث والرجال، قديم السماع، لم يخرج من الأندلس، وكان يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي. قلت –الذهبي–: وكان في أصول الديانة على مذهب السلف، لم يدخل في علم الكلام، بل قفا آثار مشايخه رحمهم الله. ("سير أعلام النبلاء" / ١٨/ ص ١٦١).

وقد قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في طبقات الفقهاء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم اهـ. ("جامع بيان العلم"/ ما يكره فيه المناظرة/ ٢/ ص١٣٠).

الوجوه كان مقلداً غير موحد على الحقيقة هو: أن الله تعالى لما أراد إكرام من هداه لمعرفته بعث رسوله محمداً صلى الله عليه و سلم بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً[٣٣].

---

[٣٣] لو كان العقل مستقلاً بنفسه في معرفة الحق لما أنزل الله كتبه ولا أرسل رسله. فلما أكرم الله عباده بإنزال كتبه وإرساله رسله وأمر العباد باتباع كتبه وطاعة رسله علمنا أن عقولنا لا تكفي في إدراك الحقائق.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ويالله العجب كيف يعرض قول الرسول بقول الفيلسوف؟ وعلى الفيلسوف أن يتبع الرسل وليس على الرسل أن تتبع الفيلسوف. فالرسول مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه. والوحي حاكم والعقل محكوم عليه. ولو كان العقل يكتفي به لم يكن للوحي فائدة ولا غنى، على أن منازل الخلق متفاوتة في العقل أعظم تفاوت، وأبصارهم مختلفة. وليس العقل بأسره في واحد من الناس أو طائفة معينة حتى يكون تقديم عقولهم على ما جاءت به الرسل، بل لكل طائفة معقول مخالف معقول الأخرى. فمن أظلم وأشد عداوة للرسل ممن جوز لكل طائفة من طوائف العقلاء أن يقدم عقولها على ما جاءت به الرسل؟ ("الصواعق المرسلة" / ١/ ص ٣٢٨).

وقال له: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾[٣٤] .

---

(٣٤) قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وآمرا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب، الله يقول: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ الآية. ("تفسير القرآن العظيم" / ٣/ ص ١٥٠).

وقال الإمام السعدي رحمه الله: هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال

المسلمين. ﴿ **وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ** ﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿ **فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ أي: فما امتثلت أمره.

﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير، بسبب كفرهم.

(انتهى من "تيسير الكريم الرحمن"/ للسعدي / ص ٢٣٩).

وقال صلى الله عليه و سلم في خطبة الوداع[٣٥] وفي مقامات له شتى وبحضرته عامة أصحابه: «**ألا هل بلغت**»[٣٦].

---

[٣٥] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا ولا ندري ما حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال: «**ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته أنذره نوح والنبيون من بعده وإنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم ثلاثا إن ربكم ليس بأعور وإنه أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية. ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم. قال: «**اللهم اشهد -ثلاثاً- ويلكم أو ويحكم انظروا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**». (أخرجه البخاري (٤٤٠٢) ومسلم (٦٦)).

وفي خطبته في بطن الوادي في حجة الوداع: «... **وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني. فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد اللهم اشهد**» ثلاث مرات. الحديث (أخرجه مسلم (١٢١٨)).

(٣٦) عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزدر على صدقات بني سليم يدعى ابن الأتبية، فلما جاء حاسبه قال: هذا مالكم وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ: «**فهلا جلست في بت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟**»، ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولّاني الله فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً؟ والله لا يأخذ أحد منكم منها شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة. فلأعرفنّ أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر**». ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه ثم قال: «**اللهم هل بلغت؟**» بصر عيني وسمع أذني. (أخرجه البخاري (٢٥٩٧) ومسلم (١٨٣٢)).

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كشف رسول الله ﷺ الستر ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه فقال: «**اللهم هل بلغت ؟**» ثلاث مرات. «**إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا يراها العبد الصالح أو تُرى له**». (أخرجه مسلم (٤٧٩)).

وكان الذي أنزل إليه الوحي وأمر بتبليغه هو كمال الدين وتمامه لقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾[٣٧].

[٣٧] إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ لإكمال دينه، والدليل قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾ **[المائدة: ٣]**.

فهذا دليل على كمال الإسلام فلا يحتاج إلى زيادة ولا نقص.

قال الإمام أبو شامة الشافعي رحمه الله: والله سبحانه قد أكمل لعباده الدين، وأتم عليهم النعمة ببعث رسول الله، وما أوحى الله إليه من الشرع الكامل، ولم يقبضه إليه إلا بعد الإكمال والتبيين. -ثم ذكر الآية-. ("الباعث على إنكار البدع والحوادث"/ ص ١١٦).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فما شيء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بيّن ذلك. -ثم ذكر هذه الآية-. ("مجموع الفتاوى"/ ١٩/ ص ١٧٣).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فقد بيّن الله سبحانه على لسان رسوله بكلامه، وكلام رسوله جميع ما أمر به، وجميع ما نهى عنه، وجميع ما أحلّه، وجميع ما حرّمه، وجميع ما عفا عنه، وبهذا يكون دينه كاملا كما قال تعالى: ﴿**اليوم**

فلم يترك ﷺ شيئاً من أمر الدين قواعده وأصوله وشرائعه وفصوله إلا بينه وبلغه على كماله وتمامه[٣٨].

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾، ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص، وعن وجه الدلالة، وموقعها وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله. ("إعلام الموقعين" / ١/ ص ٣٣٢).

(٣٨) قال الله تعالى: **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾** [النحل: ٨٩].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل عما جاء به. فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه، وإنما يحتاج إلى غيره من قبل نصيبه من معرفته وفهمه. فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلا فقد توفي رسول الله وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علماً، وعلّمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع، والنوم، والقعود، والأكل، والشرب، والركوب، والنزول، ووصف لهم الآداب، والعرش والكرسي والملائكة والجنة والنار ويوم القيامة وما فيه، حتى كأنه رأي عين. وعرّفهم بربهم

ومعبودهم أتمّ تعريف حتى كأنهم يرونه بها وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرّفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله.

وعرّفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما جلى لهم ذلك حتى كأنهم يعاينوه.

وكذلك عرّفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه إلى كلام أحد من الناس البتة.

وكذلك عرّفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به ما لو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدوٌّ أبداً. وكذلك عرّفهم من مكائد إبليس طرقه التي يأتيهم منها ويحترزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وبذلك أرشدهم في معاشهم إلى ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة فقد جاءهم رسول الله بخير الدنيا والآخرة بحذافيره ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحد سواه ولهذا ختم الله به ديوان النبوة، فلم يجعل بعده رسولاً لِاستغناء الأمة به عمن سواه.

(انتهى من "بدائع الفوائد"/ ٣ / ص٦٧٧٦٧٦-٦٧٧).

ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه إذ لا خلاف بين فرق الأمة أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال[٣٩]. ومعلوم أن أمر التوحيد وإثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة إليه أبداً في كل وقت وزمان. ولو أخر عنه البيان لكان التكليف واقعاً بما لا سبيل للناس إليه وذلك فاسد غير جائز.

---

[٣٩] لا يجوز تأخير البيان عن وقت احتياج المكلفين إلى معرفته، لأن المكلفين أُمروا بالعبادة كما تنبغي، وهي تحتاج إلى العلم، والعبادة بلا علمٍ لا تجوز ولا تقع كما تنبغي، واللهُ يريد هداية العباد، فلا يمكن أن يشرع لنبيه ﷺ تأخير بيان ما يحتاج إليه العباد.

قال السمعاني رحمه الله: اعلم أن لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة إلى الفعل. ("قواطع الأدلة" / ١/ ص ٢٦٧).

وقال الفتوحي رحمه الله: ... لأن العلة في عدم وقوع التأخير عن وقت العمل : أن الإتيان بالشيء مع عدم العلم به ممتنع. فالتكليف بذلك تكليف بما لا يطاق. فلا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. ("شرح الكوكب المنير" / ٢/ ص ٢٤٠).

وإذا كان الأمر على ما قلناه وقد علمناه يقينا أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يدعهم في أمر التوحيد إلى الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها إذ لا يمكن أحد من أصحابه من هذا النمط حرفاً واحداً فما فوقه، لا من طريق تواتر ولا آحاد؛ علم أنهم قد ذهبوا خلاف مذهب هؤلاء وسلكوا غير طريقتهم. ولو كان في الصحابة قوم يذهبون مذاهب هؤلاء في الكلام والجدال لعدّوا في جملة المتكلمين ولنقل إلينا أسماء متكلميهم كما نقل أسماء فقهائهم وقرائهم وزهادهم. فلما لم يظهر ذلك دل على أنه لم يكن لهذا الكلام عندهم أصل، وإنما ثبت عندهم أمر التوحيد من وجوه ، أحدها: ثبوت النبوة بالمعجزات التي أوردها نبيهم من كتاب قد أعياهم أمره وأعجزهم شأنه(٤٠).

---

(٤٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ضماداً قدم مكة كان من أزد شنوءة وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهل لك؟ فقال

وقد تحداهم به وبسورة من مثله وهم العرب الفصحاء والخطباء والبلغاء، فكل عجز عنه ولم يقدر على شيء منه[٤١]، إما

رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد**». قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، **فما سمعت مثل كلمات هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر**. قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: .فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: «**وعلى قومك**». قال: وعلى قومي. قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية، فمروا بقومه فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة. فقال: ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد. (أخرجه مسلم (٨٦٨)).

[٤١] قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

بأن لا يكون من قواهم ولا من طباعهم أن يتكلموا بكلام يضارع القرآن في جزالة لفظه وبديع نظمه وحسن معانيه[٤٢]، وإما أن يكون ذلك في وسعهم وتحت قدرتهم طبعا وتركيبا ولكنهم منعوه وصرفوا عنه ليكون آية لنبوته وحجة عليهم في وجوب تصديقه، وإما أن يكون إنما عجزوا عن علم ما جمع في القرآن من أنباء ما كان والإخبار عن الحوادث التي تحدث، وتكون وعلى الوجوه كلها فالعجز موجود والانقطاع حاصل.

---

[٤٢] قال الإمام النووي رحمه الله: ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات، وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون، مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة، والله أعلم. ("شرح النووي على مسلم"/ ٢ / ص١٨٨).

هذا إلى ما شاهدوه من آياته وسائر معجزاته المشهورة عنه الخارجة عن رسوم الطباع الناقضة للعادات كتسبيح الحصى في كفه[٤٣]،

---

[٤٣] أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٢٤٤) فقال: حدثنا أحمد قال: حدثنا المنتصر بن الوليد الجارودي قال: حدثنا أبي قال: حدثنا حميد بن مهران عن داود بن أبي هند عن رجل من أهل الشام يعني: الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير المصري عن أبي ذر الغفاري قال : **إني لشاهد عند النبي في حلقة وفي يده حصى فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. فسمع تسبيحهن من في الحلقة. ثم دفعهن النبي إلى أبي بكر فسبحن مع أبي بكر سمع تسبيحهن من في الحلقة. ثم دفعهن إلى النبي فسبحن في يده، ثم دفعهن النبي إلى عمر فسبحن في يده وسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى عثمان بن عفان فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا.**

شيخ الطبراني هذا أحمد بن محمد بن عبد الله صدقة، الإمام الحافظ المتقن الفقيه. (راجع "سير أعلام النبلاء" / ١٤/ ص ٨٣).

والمنتصر بن الوليد الجارودي الصواب هو المنذر بن الوليد الجارودي كما أخرجه أبو نعيم في "دلائل النبوة" (٣٢٧) به.

وهو المنذر بن الوليد بن عبد الرحمن بن حبيب بن علباء بن حبيب بن الجارود العبدي الجارودي، وثقه ابن حبان، وقد اعتمد عليه البخاري في صحيحه، فهو ثقة. (راجع "تهذيب التهذيب" / ١٠/ ص ٢٧٠).

وأبوه الوليد بن عبد الرحمن بن حبيب الجارودي ثقة. (كما في "تهذيب التهذيب" / ١١/ ص ١٢٢).

وحميد بن مهران يقال: حميد بن أبي مهران حميد الخياط الكندي، ثقة. (راجع "تهذيب التهذيب" / ٣/ ص ٤٤).

وداود بن أبي هند وجبير بن نفير المصري ثقتان معروفان.

والوليد بن عبد الرحمن الجرشي هو الوليد بن عبد الرحمن الجرشي الحمصي الزجاج، ثقة. (راجع "تهذيب التهذيب" / ١١/ ص ١٢٣).

فالسند صحيح.

وله طريق آخر في رقم (٤٠٩٧) فقال: حدثنا علي بن سعيد قال: نا موهب بن يزيد بن موهب الرملي قال: نا عبد الله بن وهب قال: نا محمد بن أبي حميد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي ذر به نحوه.

في سنده محمد بن أبي حميد، وهو محمد بن إبراهيم الأنصاري أبو إبراهيم المدني، **ضعيف جدّاً**. (راجع "تهذيب التهذيب" / ٩/ ص ١١٦).

فالسند ضعيف.

والحديث أخرجه أيضاً البيهقي في "دلائل النبوة" (٢٣١٤) وقال: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان ، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا الكديمي ، حدثنا قريش بن أنس ، وأنبأنا صالح بن أبي الأخضر ، عن الزهري، عن رجل ، يقال له سويد بن يزيد السلمي ، قال : سمعت أبا ذر به نحوه، ثم قال: وكذلك رواه محمد بن بشار ، عن قريش بن أنس ، عن صالح بن أبي الأخضر ، **وصالح لم يكن حافظاً. والمحفوظ رواية شعيب بن أبي حمزة** ، عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلا من بني سليم كبير السن كان ممن أدرك أبا ذر بالربذة ذكر له فذكر هذا الحديث عن أبي ذر.

وقد رجح البيهقي رواية شعيب بن أبي حمزة ، عن الزهري، عن الوليد بن سويد، عن مبهم، عن أبي ذر. وشعيب بن أبي حمزة أثبت الناس في الزهري كما هو معروف. **فالسند ضعيف لإبهامه.**

يكفينا السند الأول في تصحيح الحديث. وجاء أيضاً عن أنس رضي الله عنه.

وحنين الجذع لمفارقته[٤٤]، ورجف الجبل تحته وسكونه لما ضربه برجله[٤٥]، وانجذاب الشجرة بأغصانها وعروقها إليه[٤٦]،

---

[٤٤] عن ابن عمر رضي الله عنهما: **كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه.** (أخرجه البخاري (٣٥٨٣)).

وجاء عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فإن حنين الجذع وانشقاق القمر نُقل كل منهما نقلاً مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق ذلك من أئمة الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك. ("فتح الباري" /٦/ ص ٥٩٢).

[٤٥] عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: «**اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**». (أخرجه البخاري (٣٦٧٥)).

[٤٦] عن جابر رضي الله عنه في حديث طويل: ... سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديا أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي**

وسجود البعير له[٤٧]،

علي بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي علي بإذن الله**» فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما (يعني جمعهما) فقال: «**التئما علي بإذن الله**» فالتأمتا. قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحش رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد. فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً. وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق. (أخرجه مسلم (٣٠١٢)).

(٤٧) عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: بينما نحن قعود مع النبي ﷺ إذ أتاه آت ، قال : إن ناضح آل فلان قد أبق عليهم ، قال : فنهض رسول الله ﷺ ونهضنا معه ، فقلنا : يا رسول الله ، لا تقربه ، فإنا نخافه عليك ، فدنا رسول الله ﷺ من البعير. فلما رآه البعير سجد ، ثم إن رسول الله ﷺ وضع يده على رأس البعير ، فقال: «**هاتوا السفار**» ، قال : فجيء بالسفار فوضعه في رأسه ، وقال : « **ادعوا لي صاحب البعير** »، قال : فدعي له ، فقال رسول الله ﷺ: «**ألك البعير؟**» قال : نعم ، قال : «**فأحسن علفه ، ولا تشق عليه في العمل**»، قال : أفعل ، قال : فقال له أصحابه : يا رسول الله ، بهيمة من البهائم تسجد لك

ونبوع الماء من أصابعه حتى توضأ به بشر كثير[٤٨]، وربو الطعام اليسير بتبريكه فيه حتى أكل منه عدد جم[٤٩]،

لعظيم حقك ، فنحن أحق أن نسجد لك ، فقال النبي ﷺ : «**لو كنت آمرا أحدا من أمتي يسجد بعضهم لبعض لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن**». (أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٢٧٧)/ حسن).

(٤٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء فقال: «**اطلبوا فضلة من ماء**» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال: «**حي على الطهور المبارك والبركة من الله**» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ. ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. (أخرجه البخاري (٣٥٧٩)).

(٤٩) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول: لما حفر الخندق رأيت برسول الله ﷺ خمصاً فانكفأت إلى امرأتي فقلت لها: هل عندك شيء ؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً. فأخرجت لي جرابا فيه صاع من شعير. ولنا بهيمة داجن. قال: فذبحتها وطحنت ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه. قال: فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير

وإخبار الذراع إياه بأنها مسمومة[٥٠]، وأمور كثيرة سواها يكثر تعدادها وهي مشهورة ومجموعة في الكتب التي انتسبت لمعرفة هذا الشأن.

كان عندنا، فتعال أنت في نفر معك. فصاح رسول الله ﷺ وقال: «**يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سورا فحيهلا بكم**». وقال رسول الله ﷺ: «**لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء**». فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلت الذي قلت لي. فأخرجت له عجينتنا فبصق فيها وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك ثم قال: «**ادعي خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها**». وهم ألف فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجينتنا لتخبز كما هو. (أخرجه مسلم (٢٠٣٩).

وجاءت قصة أخرى نحوها من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاري (٥٤٥٠) ومسلم (٢٠٤٠)).

[٥٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، فأهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية سمتها فأكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم فقال: «**ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة**». فمات بشر بن

فلما استقر ما شاهدوه من هذه الأمور في نفوسهم وثبت ذلك في عقولهم صحت عندهم نبوته، وظهرت عن غيره بينونته، ووجب تصديقه على ما أنبأهم عنه من الغيوب ودعاهم إليه من أمر وحدانية الله تعالى، وإثبات صفاته، وإلى ذلك ما وجدوه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة ودلائل الحكمة الشاهدة على أن لها صانعاً حكيماً عالما خبيراً تام القدرة بالغ الحكمة(٥١).

البراء بن معرور الأنصاري فأرسل إلى اليهودية: «**ما حملك على الذي صنعت؟**». قالت: إن كنت نبيّاً لم يضرّك الذي صنعت وإن كنت ملكا أرحت الناس منك. فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت، ثم قال في وجعه الذي مات فيه: «**ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان قطعت أبهري**». (أخرجه أبو داود (٤٥١٢) والحاكم (٤٠٩٠)/ **صحيح**).

(٥١) إن قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومعرفة الرب بربوبيته إذ ربوبيته ظاهرة لا يدعها جاحد ولا يقدر أن ينكرها معاند إذ هو أجلّ أن يخفى وأعزّ أن يقاس وأعظم أن تُشرِف عليه العقول أو يتناوله معقول. ("درء التعارض"/ ٤/ ص٣٥٨).

والاعتراف بربوبية الله أمر فطري ضروري بدون تكلف في النظر.

وقد نبههم الكتاب عليه ودعاهم إلى تدبره وتأمله والاستدلال به على ثبوت ربوبيته فقال: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ [الذاريات: ٢١][٥٢]،

قال شيخ الإسلام رحمه الله: من المعروف عند السلف والخلف أن جميع الجن والإنس معترفون بالخالق مقرون به مع أن جمهور الخلق لا يعرفون النظر الذي يذكره هؤلاء فعلم أن أصل الإقرار بالصانع والاعتراف به مستقر في قلوب جميع الإنس والجن وأنه من لوازم خلقهم ضروري فيهم. ("درء التعارض"/ ٤/ ص٣٣٢).

[٥٢] قال الإمام أبو الشيخ الأصبهاني رحمه الله: قال الله عز و جل: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾. فإذا تفكر ذاك العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين واضمحلت عنه غمرات الشك وظلمة الريب، وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكونة مكنونة مجموعة مؤلفة مجزأة منضدة مصورة متركبة بعضها في بعض فيعلم أنه لا يوجد مدبَّر إلا بمدبِّر، ولا مكوَّن إلا بمكوِّن، وتجد لا مكوَّن إلا بمكوِّن وتجد تدبير المدبر فيه شاهداً دالاً عليه، كما تنظر إلى حيطان البناء وتقديرها وإلى السقف المسقف فوقه بجذوعه وعوارضه

وتطيين ظهره ونصب بابه وإحكام غلقه ومفتاحه للحاجة إليه. فكل ذلك يدلّ على بانيه ويشهد له.

فكذلك هذا الجسم إذا نظرت إليه وتفكرت فيه وجدت آثار التدبير فيه قائمة شاهدة للمدبر دالة عليه فقد أيقن الخلائق كلهم أنهم لم يكونوا من قبل شيئاً، ولا كان لهم في الأرض أثر ولا ذكر، فصاروا وهم لا يشعرون أنفساً معروفة مصورة مجسومة قد اجتمعت فيها جوارح وأعضاء بمقدار حاجتهم إليها لم يزد لهم على ذلك ولم ينقص منها من قطرة ماء لحوماً منضدة وعظاما متركبة بحبال العروق ومشدودة بجلد متين موفى لحمه ودمه ما قد ركبت فيه مائتان وثمانية وأربعون عظماً وشدت بثلاث مائة وستين عرقاً فيما بلغنا للاتصال والانفصال والقبض والبسط والمدّ والضم، ويجعل فيه تسعة أبواب لحاجته إليها، فمنها أُذناه المثقوبتان لحاجة السمع قد جعل ماؤهما مُرّاً لئلا يلج فيها دابة فتخلص إلى الدماغ، وذلك الماء سمّ قاتل.

وعيناه لحاجة الرؤية مصباحان من نور مركبان في لحم ودم وقد جعل ماؤهما مالحاً لئلا يفسدهما حرارة النفس بالنفَس ولا يذوبان لأنه شحم.

ومنخراه المثقوبتان لحاجة الشم والنفس وإلقاء ما يجتمع في رأسه من قذر المخاط.

وفوه المشقوق لحاجة التنفس والكلام والأكل والشرب، قد جعل ماؤه عذباً ليجد لذة المطاعم وطعم المذاقات مركبة فيه الأسنان لحاجة المضغ من أعلى وأسفل كحجري رحى يطحنان الطعام بينهما دونهما مجرى الطعام والشراب حتى يسوق إلى المعدة وهي كالقدر في الجوف قد وكلت بها نار تنضجه فيها وهي الكبد بدمها قد وكلت بذلك الطعام أربع من الرياح ريح تسوقه من الفم إلى المعدة، وريح تمسكه في الجوف إلى أن يصل نفعه إلى البدن، وريح تصرف صفوته في العروق كما يطرد الماء في الأنهار، وريح تدفع ثقله وفضله، وذلك حين يجد في جوفه تجريد الخلاء والبول.

وقبله ودبره لحاجته إلى طرح ذلك الفضل وكل واحد منهما عون على شيء من الأشياء التي بها تنال اللذات وتدرك الطلبات وتحيي النفس ويطيب العمر.

ولو نقص منها لامرئٍ عضو أو جارحة لطفق منقوص الحظ من شهوته وعاجزاً عن إدراك بغيته. ولو زاد فيها لضرته الزيادة وتأذى بها وأظهرت فيه عجزاً كما يظهره النقص منها. وإن خص الله عبداً بنقصان أو

زيادة في عضو أو جارحة فذلك دليل على ابتلائه واختباره وتعريف من خلقه سوياً فضل إنعامه وإحسانه.

وقد علم المخلوق أنه مدبر وأن له خالقاً هو مدبر لأنه وجد العين مدبرة للبصر ولولاها لكان لا يقدر على النظر ولا يرى الدنيا ولا عجائبها ولا يفرق بين الحسن والقبيح فيها.

والأذن تستمع ولولاها لكان لا يقدر على سمع كلامه لا يسمع كلاما ولا حسا ولا همسا ولا يستفيد أدبا ولا علما ولا يدرك قضاء ولا حكماً.

والأنف للشم ولولاه لكان لا يتلذذ باستنشاق طيب ولا بنسيم ريح ولا يميز بين دواء نافع وسم قاتل.

والفم مشرعا إلى ما استبطن منه به ينزل الطعام والشراب ويصعد النفس والكلام ولولاه ما ذاق طعم الحياة ولا تخلف ساعة عن منهل الأموات.

واللسان للنطق ولولاه لكان لا يقدر على دعاء ولا نداء ولا على نجوى ولا على طلب شيء ابتغى أو اشتهى ولا على شكوى أو وصف بلوى.

واليد للبطش ولولاها لكان لا يستطيع قبضا ولا بسطا ولا تناولا ولا دفعا ولا تلقيا ولا حكاً.

والرجل للمشي ولولاها كان لا يخطو ولا ينهض ولا عن مكان إلى مكان ينتقل.

والفرج معين الشهوة ونهج للنطفة ولولاه لكان لا يوجد له نسل ولا يرى له عقب.

وسبيل سائر الجوارح التي لم نصفها بسبيل ما قد أتى وصفنا عليه منها.

وفي التفكر في الأمعاء وما فيها من الهواء والدماغ والعصب والشوى اللاتي منها ما هي بمجاري الأطعمة والأشربة والأغذية ومنها ما هي مقاطن الروح والنفس والعقل والحلم والجهل والعلم والحذق وغير ذلك.

وفي رحم المرأة الذي يقع فيه الماء الدافق ويخرج منه الخلق الكامل.

وفي المفايح التي يجري فيها الدم والنفس والتي ينزل عليها من الأنثى للولد والتي تنشق مما يدخل الجوف ما تحيى به النفس ويربو عليه الجسم والتي

يخرج بها ما تقضمه المعدة مما لو بقي فيها لقتل صاحبها الشدة وفي ورود الروح البدن من غير أن يرى من أين ورد أو كيف حدث وصدوره عنه بلا أن يعلم كيف صدر وأين ذهب.

ثم إن الخلق جميعا على سبيلين ذكور وإناث والأنام طرأ على نوعين رجال ونساء وإن جوارح كل أحد على مثال غيره وصورة كل واحد تختلف عن صورة غيره. فأي دليل لمدعي حق في دعواه أوضح مما وصفت وأي حجة له أوكد مما أحضرت ألا يعلم المعطل الشقي الجاهل الغوي حين لم يكن لنفسه في خلقه صنع ولا عرف لها في الأرض صانعا أن مثل هذه الأشياء المتفقة المنتظمة الملتأمة المتشاكلة المجتمعة في خلق واحد وكل أحد سبيله سبيل ذلك الواحد ومثل هذه العجائب التي يعجز علم كونها فضلا عن إحداث مثلها لا تتكون من ذاتها ولا يستطيعه إلا حكيم قدير على إنشائها.

ثم الدلائل الواضحة والعلامات البينة في تغير الأمور وتصرف الدهور التي لا يستطيع دفعها ولا إحداث مثلها الملوك بسلطانهم ولا المثرون بأموالهم ولا أولوا القوة بقوتهم ولا أهل الرأي بتدبيرهم.

وفي العجائب التي يحار فيها البصر ويعجز عن وصفها البشر مما قد صارت كلها مدبرة لمصالح الأنام وأرفاقهم وأغذيتهم وأرزاقهم بغير صنع

إشارة إلى ما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين على وجود الصانع الحكيم لما ركب فيها من الحواس التي يقع عنها الإدراك والجوارح التي يتأثر بها القبض والبسط والأعضاء المعدة للأفعال التي هي خاصة بها كالأضراس الحادثة فيهم عند غنائهم عن الرضاع وحاجتهم إلى الغذاء فيقع بها الطحن له، وكالمعدة التي اتخذت لطبخ الغذاء والكبد التي يسلك إليها صفاوته وعنها يكون انقسامه على الأعضاء في مجاري العروق المهيأة لنفوذه إلى أطراف البدن، وكالأمعاء التي إليها يرسب ثفل الغذاء وتمجه فيبرز عن البدن،

فيها لهم ولا حول ولا قوة منهم. فلو رجعت الأرواح ألى أجسام كل من مضى من الدنيا فاجتمعوا مع كل من بقي على تغيير شيء منها أو خلق شيء مثلها بأفراغ الوسع وفرط الاجتهاد وبذل الأموال ما استطاعوه ولا قدروا عليه.

(انتهى من "العظمة" / لأبي الشيخ / ١ / ص ٢٧١-٢٨١).

وكقوله تعالى: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**[٥٣] ❊

وإلى السماء كيف رفعت[٥٤] ❊

---

(٥٣) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى آمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾؟ فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٣٨٧).

(٥٤) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿**الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾. يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء

الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية، بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة. ("تفسير القرآن العظيم" / ٤/ ص٤٢٨-٤٢٩).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في مسألة إمساك السماء: ثم إنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها. ﴿**الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين**﴾. ("مفتاح دار السعادة" / ١/ ص١٩٩).

وإلى الجبال كيف نصبت[٥٥] * **وإلى الأرض كيف سطحت**﴾[٥٦] [الغاشية: ١٧-٢٠]،

---

[٥٥] قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿ **وإلى الجبال كيف نصبت** ﴾ أي: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٣٨٧).

[٥٦] قال الإمام ابن العربي رحمه الله: والأرض فانظر إليها كيف وضعت فراشاً، ووطئت مهاداً، وجعلت كفاتاً، وأنبتت معاشاً، وأرسيت بالجبال، وزينت بالنبات، وكرمت بالأقوات، وأرصدت لتصرف الحيوانات ومعاشها ؛ وكل جزء من ذلك فيه عبرة تستغرق الفكرة : والحيوان أحد قسمي المخلوقات ، والثاني الجمادات ؛ فانظر في أصنافها، واختلاف أنواعها وأجناسها ، وانقيادها وشرسها ، وتسخيرها في الانتفاع بها ، زينة وقوتاً، وتقلباً في الأرض.

والبحار أعظم المخلوقات عبرة ، وأدلها على سعة القدرة في سعتها ، واختلاف خلقها ، وتسيير الفلك فيها ، وخروج الرزق منها ، والانتفاع في الانتقال إلى البلاد البعيدة بالأثقال الوئيدة بها .

(انتهى من "أحكام القرآن" / لابن العربي / ٤ / ص٥٥).

وكقوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾(٥٧) [آل عمران: ١٩٠]،

(٥٧) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت/ ٣٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان/ ٤٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر/ ٦١]. وهذا كثير في القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته، كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم، فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم، فإذا هم مبصرون. فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر. وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منعها من الاعتبار به والاستدلال

وما أشبه ذلك من جلال الأدلة وظواهر الحجج التي يدركها كافةُ ذوي العقول وعامةُ من يلزمه حكم الخطاب مما يطول تتبعه واستقراؤه.

فعن هذه الوجوه ثبت عندهم أمر الصانع وكونه، ثم تبينوا وحدانيته وعلمه وقدرته بما شاهدوه من اتساق أفعاله على الحكمة واطرادها في سبلها وجريها على إدلالها، ثم علموا سائر صفاته توقيفاً عن الكتاب المنزل بأن حقه وعن قول النبي صلى الله عليه و سلم المرسل الذي قد ظهر صدقه، ثم تلقى جملة أمر الدين عنهم أخلافُهم

به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم. ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا أيضا من آياته الباهرة أن يعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها، ولا يبصرها لمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء. وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ٢٠٣-٢٠٤).

وأتباعُهم كافة عن كافة قرناً بعد قرن، فتناولوا ما سبيله الخبر منها تواتراً واستفاضة على الوجه الذي تقوم به الحجة، وينقطع فيه العذر، ثم كذلك من بعدهم عصراً بعد عصر إلى آخر من تنتهي إليه الدعوة وتقوم عليه به الحجة(٥٨).

(٥٨) إن جميع ما في السماوات والأرض دليل على وحدانية الله وقدرته. وكل ذلك يدعو إلى الإيمان بالله والاعتراف بصدق رسله. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ﴿ **أولم ينظروا** ﴾ -هؤلاء المكذبون بآياتنا -في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض، وفيما خلق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة. والدين الخالص إلا له. فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. ("تفسير القرآن العظيم" / ٣ / ص٥١٧).

فكان ما اعتمده المسلمون في الاستدلال أصح وأبين وفي التوصل إلى المقصود به أقرب إذ كان التعلق في أكثرها إنما هو بمعان تدرك بالحسّ(٥٩) وبمقدمات من العلم مركبة عليها لا يقع الخلف في دلالاتها.

---

(٥٩) بالحسّ تدرك علوماً ضرورية لا تقبل التشكيك. قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: والعلوم تنقسم قسمين: ضروري ومكتسب، **فحدّ الضروري ما لا يمكن العالم أن يشكك فيه نفسه، ولا يدخل فيه على نفسه شبهة** ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر، ويدرك ذلك من جهة الحسّ والعقل، كالعلم باستحالة كون الشيء متحركاً ساكناً أو قائماً قاعداً أو مريضاً صحيحاً في حال واحدة. ومن الضروري أيضاً وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس كذوق الشيء يعلم به المرارة من الحلاوة ضرورة إذا سلمت الجارحة من آفة وكرؤية الشيء يعلم بها الألوان والأجسام وكذلك السمع يدرك به الأصوات ، ومن الضروري أيضا علم الناس أن في الدنيا مكة ، والهند ، ومصر ، والصين وبلدانا قد عرفوها وأمما قد خلت . **وأما العلم المكتسب فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر**، ومنه الخفي والجلي فما قرب منه من العلوم الضرورية

فأما الأعراض فإن التعلق بها أن يكون عسراً، وإما أن يكون تصحيح الدلالة من جهتها عسراً متعذراً، وذلك أن اختلاف الناس قد كثر فيها، فمن قائل: (لا عرض في الدنيا) ناف لوجود الأعراض أصلاً، وقائل: (إنها قائمة بأنفسها لا تخالف الجواهر في هذه الصفة)

كان أجلى وما بعد منها كان أخفى اهـ. ("جامع بيان العلم"/ باب العبارة عن حدود العلم/ ٢/ ص ٤٨٩).

فلذلك عند المسلمين المؤمنين بالقرآن المتبعين لهداية الرسل الثابتين على الفطرة ضروريات لا تقبل التشكيك. وكذلك نالوا هؤلاء المسلمون حقّاً علوماً ضرورية بتعاليم القرآن والسنة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالمرجع في كونه ضروريًّا إلى أنه يعجز عن دفعه عن نفسه. ("مجموع الفتاوى"/ ٤/ ص ٤٤).

وهذا العلم الضروري يحصل بوضوح الدليل عليه في القلوب. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وفي الحقيقة فجميع الأدلة اليقينية توجب علمًا ضروريًّا. والأدلة السمعية الخبرية توجب علمًا ضروريًّا بأخبار الرسول. ("مجموع الفتاوى"/ ١٣/ ص ١٤٠).

إلى غير ذلك من الاختلاف فيها، وأوردوا في نفيها شبهاً قوية. فالاستدلال بها والتعلق بأدلتها لا يصح إلا بعد التخلص من تلك الشبه والانفكاك عنها[٦٠].

---

[٦٠] هذا يدل على أن علم الكلام هو مادة الحيرة وسبب اضطراب المعتقد وضلال الطريق. فلذلك حذّر العلماء منه.

قال المزني رحمه الله: كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي، فلما قدم أتيته، فسألته عن مسألة من الكلام، فقال لي: تدري أين أنت؟ قلت: نعم، في مسجد الفسطاط. قال لي: أنت في تاران - قال عثمان، أحد الرواة: وتاران موضع في بحر القلزم لا تكاد تسلم منه سفينة - ثم ألقى علي مسألة في الفقه، فأجبت، فأدخل شيئا أفسد جوابي، فأجبت بغير ذلك، فأدخل شيئا أفسد جوابي، فجعلت كلما أجبت بشيء، أفسده، ثم قال لي: هذا الفقه الذي فيه الكتاب والسنة وأقاويل الناس، يدخله مثل هذا، فكيف الكلام في رب العالمين، الذي فيه الزلل كثير؟ فتركت الكلام، وأقبلت على الفقه. ("سير أعلام النبلاء" / ١٠/ ص٢٥-٢٦).

والطريقة التي سلكناها سليمة من هذه الآفات بريئة من هذه العيوب، فقد بان ووضح فساد قول من زعم وادعى من المتكلمين: (أن من لم يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده من الوجه الذي يصححونه في الاستدلال فإنه غير موحد في الحقيقة لكنه مستسلم مقلد، وأن سبيله سبيل الذرية في كونها تبعاً للآباء في الإسلام).

وثبت أن قائل هذا القول مخطئ وبين يدي الله ورسوله متقدِّم، وبعامة الصحابة وجمهور السلف مزرٍ، وعن طريقة السنة عادلٌ، وعن نهجها ناكبٌ. فهذا قولهم ورأيهم في عامة السلف وجمهور الأئمة وفقهاء الخلف، فلا تشتغل رحمك الله بكلامهم، ولا تغتر بكثرة مقالاتهم فإنها سريعة التهافت كثيرة التناقض[٦١]. وما

---

[٦١] من تأمل أقوال الفلاسفة علم بتوفيق الله تناقضاتهم واضطرابهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في علم الكلام: فإنه كلما ازداد اللبيب له تصورا وتفهما ازداد علما بفساده وتناقضه وبأن القوم من أجهل الناس بالله تعالى. ("الصفدية"/ ٢ / ص ٢٢٣).

من كلام نسمعه لفرقة منهم إلا ولخصومهم عليه كلام يوازيه أو يقاربه. فكلٌّ بكلٍّ معارضٌ، وبعضٌ ببعضٍ مقابلٌ. وإنما يكون تقدم الواحد منهم وفلجه على خصمه بقدر حظه من البيان وحذقة في صنعة الجدل والكلام. وأكثر ما يظهر به بعضهم على بعض إنما هو إلزام من طريق الجدل على أصول مؤصلة ومناقضات على مقالات حفظوها عليهم، فهم يطالبونهم بعودها وطردها، فمن تقاعد عن

وقال رحمه الله: وكلما ازداد معرفة بحقيقة هذا الكلام وفساده ازداد إيمانا وعلما بحقيقة ما جاء به الرسول. ولهذا قال من قال من الأئمة: (قلّ أحد نظر في الكلام إلا تزندق وكان في قلبه غلّ على أهل الإسلام) بل قالوا: (علماء الكلام زنادقة)، ولهذا قيل: إن حقيقة ما صنفه هؤلاء في كتبهم من الكلام الباطل المحدث المخالف للشرع والعقل هو: ترتيب الأصول في تكذيب الرسول ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ولولا أن هؤلاء القوم جعلوا هذا علما مقولا ودينا مقبولا يردون به نصوص الكتاب والسنة. ("درء التعارض"/ ١ / ص ٣٢٨).

شيء منها سموه من طريق الجدل منقطعاً، وجعلوه مبطلاً، وحكموا بالفلج لخصمه عليه.

والجدل لا يبيَّن به حق ولا تقوم به حجة[٦٢].

---

[٦٢] المراد هنا: الجدل العاري عن القصد السليم والاستدلال الصحيح، وكذلك جدلية أهل الكلام ليس فيها كثير نفع لكثرة آفاتها ومخالفاتها لطريق الله تعالى ورسوله ﷺ. وأما الجدال للدفاع عن الدين وهدم شبهات المبطلين بالطريق الصحيح فأمر مطلوب ممن قدر على ذلك، وفي القرآن أدلة كثيرة معروفة على شرعيته.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج، وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ فيه بإقامة الحجة والمجادلة فقال تعالى: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ وقال: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾ وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه، وهذه مناظرات رسول الله ﷺ وأصحابه لخصومهم، وإقامة الحجج عليهم، **لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل**. ("مفتاح دار السعادة"/ ١ / ص١٤٦).

ولكن ذلك إنما شرع لمن قدر عليه ويؤمن عليه من التأثر بشبهات المبطلين، وقلّ من سلم من ذلك. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ**». ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾. (أخرجه الترمذي (برقم (٣٢٥٣)/ دار الحديث) وهو في "الصحيح المسند" للإمام الوادعي رحمه الله (رقم ٤٧٩ / ط. دار الآثار/ الطبعة الجديدة)).

وقد كثرت أقوال السلف رحمه الله في ذم الجدال في الدين لما فيه من زلزلة الأقدام وغير ذلك من الأضرار.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات** ». (أخرجه أبو داود" رقم (٤٣١١) وصححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" رقم (١٠١٩)).

قال الإمام ابن بطة رحمه الله: فالله الله معشر المسلمين، لا يحملن أحدا منكم حسن ظنه بنفسه، وما عهده من معرفته بصحة مذهبه على المخاطرة بدينه في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء، فيقول: (أداخله لأناظره، أو لأستخرج منه

مذهبه)، **فإنهم أشد فتنة من الدجال،** وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق للقلوب من اللهب، ولقد رأيت جماعة من الناس **كانوا يلعنونهم**، ويسبونهم، فجالسوهم على سبيل الإنكار، والردّ عليهم ، فما زالت بهم المباسطة وخفي المكر، ودقيق الكفر **حتى صبوا إليهم** اهـ. ("الإبانة الكبرى" /تحت رقم (٤٨٠)).

وصحّ عن أبي قلابة رحمه الله قال : **لا تجالسوا أهل الأهواء ، ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة ، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم.** (أخرجه الآجري رحمه الله/ "الشريعة" / باب ذم الجدال والخصومات في الدين (ص٥٧)/ دار الكتب العلمية).

وعن مفضل بن مهلهل رحمه الله قال: لو كان صاحب البدعة إذا جلست إليه يحدثك ببدعته حذرته، وفررت منه، ولكنه يحدثك بأحاديث السنة في بدو مجلسه ، ثم يدخل عليك بدعته، فلعلها تلزم قلبك، فمتى تخرج من قلبك اهـ. ("الإبانة الكبرى"/ للإمام ابن بطة رحمه الله/رقم (٣٩٩)/ ط. الفاروق الحديثية/ بسند حسن).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي

ضلالة، وترك الخصومات، **وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء، والجدال، والخصومات في الدين** اهـ. ("أصول السنة للإمام أحمد"/ ص١).

فلا يجوز لضعيف العلم والقلب أن يجادل أهل الباطل، لأن المفسدة راجحة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجا قويا من علوج الكفار فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة. وقد ينهى عنها إذا كان المناظر معاندا يظهر له الحق فلا يقبله – وهو السوفسطائي – **فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة بينة بنفسها ضرورية وجحدها الخصم كان سوفسطائيا ولم يؤمر بمناظرته بعد ذلك**. بل إن كان فاسد العقل داووه وإن كان عاجزا عن معرفة الحق – ولا مضرة فيه – تركوه وإن كان مستحقا للعقاب عاقبوه مع القدرة : إما بالتعزير وإما بالقتل وغالب الخلق لا ينقادون للحق إلا بالقهر. والمقصود أنهم نهوا عن المناظرة من لا يقوم بواجبها أو من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة أو فيها مفسدة راجحة فهذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال. وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة تارة أخرى وفي الجملة جنس المناظرة والمجادلة فيها : محمود ومذموم

وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين كلتاهما باطلة ويكون الحق في ثالثة غيرهما. فمناقضة أحدهما صاحبه غير مصحح مذهبه وإن كان مفسداً به قول خصمه، لأنهما مجتمعان معاً في الخطأ مشتركان فيه كقول الشاعر فيهم:

حجج تهافت كالزجاج تخالها * حقاً وكل كاسر مكسور * [٦٣]

ومفسدة ومصلحة وحق وباطل. (انتهى النقل من "درء التعارض" / ٣ / ص٣٧٤).

[٦٣] هذا كله يدل على أن علم الكلام ليس مصدراً صحيحاً يقينياً لمعرفة الله تعالى، بل هو شيء يبعد عن الحق واليقين، فلذلك اعترف كثير من فحولهم بفساد علم الكلام كما مر بنا في أوائل الكتاب.

وإنما كان الأمر كذلك لأن واحداً من الفريقين لا يعتمد في مقالته التي ينصرها أصلاً صحيحاً، وإنما هو أوضاع وآراء تتكافأ وتتقابل[٦٤]، فيكثر المقال ويدوم الاختلاف ويقلّ الصواب[٦٥].

---

[٦٤] وهذه الآراء والأوضاع التي وضعها الفلاسفة ليست علماً.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: والعلم هو ما بعث الله به رسوله وهو السلطان كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم**﴾ فمن تكلم في الدين بغير ما بعث الله به رسوله كان متكلماً بغير علم. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨ / ص ٣٩).

[٦٥] وكثرة تناقضات واضطرابات الفلاسفة تدل على فساد أقوالهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن التناقض أول مقامات الفساد. ("مجموع الفتاوى"/ ٦/ ص ٣٨٩).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: والأقوال إذا تعارضت وتعذر الترجيح كان دليلا على فسادها وبطلانها. ("مفتاح دار السعادة"/ ٢/ ص ١٤٧/ المكتبة العصرية).

قال الله تعالى: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢]، فأخبر سبحانه أن ما كثر فيه الاختلاف فإنه ليس من عنده، وهذا من أدلّ الدليل على أن مذاهب المتكلمين فاسدة لكثرة ما يوجد فيها من الاختلاف المفضي بهم إلى التكفير والتضليل[٦٦]، وذلك صفة الباطل الذي أخبر الله سبحانه عنه، ثم قال في صفة الحق: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾ [الأنبياء: ١٨][٦٧].

---

[٦٦] قال شيخ الإسلام رحمه الله: فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً. ("منهاج السنة النبوية" / ٥/ ص ١٣٠).

[٦٧] قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل**﴾ أي: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿**فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾ أي: ذاهب مضمحل. ("تفسير القرآن العظيم" / ٥/ ص ٣٣٦).

وقال رحمه الله في تفسير آية أخرى: وقوله: ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان

فإن قيل: إن دلائل النبوة ومعجزات النبي ﷺ ما عدا القرآن إنما نقلت إلينا من طريق الآحاد على من كان في الزمان المتأخر لجواز وقوع الغلط فيها واعتراض الآفات من الكذب وغيره عليها.

قيل: هذه الأخبار وإن كان شروط التواتر في آحادها معدومة فإن جملتها راجعة من طريق المعنى إلى التواتر ومتعلقة به جنساً لأن بعضها يوافق بعضا ويجانسه إذ كل ذلك واقع تحت الإعجاز والأمر المزعج للخواطر الناقض لمجرى العادات ومثال ذلك: أن يروي قوم أن حاتم الطائي وهب لرجل مائة من الإبل، ويروي آخرون أنه وهب لرجل آخر ألفا من الغنم، وآخرون أنه وهب لآخر عشرة أرؤس من الخيل وارقيق وما يشبه ذلك حتى يكثر عدد ما يروى منه، فهو وإن لم يثبت التواتر في كل واحد منها نوعاً نوعاً فقد ثبت التواتر في جنسها فقد حصل من جملتها العلم الصحيح بأن حاتماً سخي

والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾ [الأنبياء: ١٨]. ("تفسير القرآن العظيم" / ٥/ ص١١١-١١٢).

كذلك هذه الأمور. فإن لم تثبت أفراد أعيانها تواترا فقد ثبتت برواية الجم الغفير الذي لا يحصى عددهم ولا يتوهم التواطؤ في الكذب عليهم أنه جاء بمعنى معجز للبشر خارج عما في قدرتهم، فصحّ بذلك أمر نبوته، وبالله التوفيق.

فإن قيل: فيجب على هذه المقدمة التي قدمتموها أن لا يكون الإيمان بالله ولا معرفة وحدانيته واجباً على من يعقل قبل أن يبعث إليه رسول، وأن لا يكون بتركه مؤاخذاً وعليه معاقباً.

قيل: كذلك نقول، وعليه دل قوله سبحانه: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥][٦٨]، وقوله حكاية

---

(٦٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: إن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه كما قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾، وقال تعالى: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [النساء/ ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿**كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ**﴾ [الملك/ ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿**فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ [الملك/ ١١]، وقال

عمن استحق العقوبة على ترك الإيمان به وبالبعث: ﴿**ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى**﴾ [الزمر: ٧١]، فأقام الحجة عليهم ببعثه الرسل. فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم تكن بعثة الرسل شرطاً لوجوب العقوبة(٦٩).

تعالى: ﴿**يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ**﴾ [الأنعام/ ١٣٠]. وهذا كثير في القرآن يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه. وقال تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ**﴾ [**الزخرف**/ ٧٦]. والظالم من عرف ما جاء به الرسول، أو تمكّن من معرفته بوجه. وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟ ("طريق الهجرتين"/ ١/ ص٦١٠-٦١١).

(٦٩) وأما أهل الفلسفة العقلانيون فلم يقتنعوا بشريعة رسول الله ﷺ ولم يعترفوا بمحاسنها وكفايتها في تعريف الرب وإقامة الحجة على الناس. فلذلك حذر أكابر العلماء مما يسمى بالفلسفة.

جاء سؤال إلى الإمام مفتي الشافعية أبي عمرو بن الصلاح:

مسألة فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعليما وتعلما وهل المنطق جملة وتفصيلا مما أباح الشارع تعليمه وتعلمه والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون والسلف الصالحون ذكروا ذلك أو أباحوا الاشتغال به أو سوغوا الاشتغال به أم لا وهل يجوز أن يستعمل في إثبات الأحكام الشريعة الاصطلاحات المنطقية أم لا وهل الأحكام الشرعية مفتقرة إلى ذلك في إثباتها أم لا وما الواجب على من تلبس بتعليمه وتعلمه متظاهرا به ما الذي يجب على سلطان الوقت في أمره وإذا وجد في بعض البلاد شخص من أهل الفلسفة معروفا بتعليمها وإقرائها والتصنيف فيها وهو مدرس في مدرسة من مدارس العلم فهل يجب على سلطان تلك البلاد عزله وكفاية الناس شره.

أجاب رحمه الله: الفلسفة رأس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه أظلم قلبه عن نبوة نبينا ﷺ كلما ذكره ذاكر وكلما غفل عن ذكره غافل مع انتشار آياته المستبينة ومعجزاته المستنيرة حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها فجمع منها ألف معجزة وعددناه مقصرا إذا فوق ذلك بأضعاف

لا تحصى فإنها ليست محصورة على ما وجد منها في عصره ﷺ بل لم تزل تتجدد بعده ﷺ على تعاقب العصور وذلك أن كرامات الأولياء من أمته وإجابات المتوسلين به في حوائجهم ومغوثاتهم عقيب توسلهم به في شدائدهم براهين له ﷺ قواطع ومعجزات له سواطع ولا يعدها عد ولا يحصرها حد أعاذنا الله من الزيغ عن ملته وجعلنا من المهتدين الهادين بهديه وسنته .

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدي به من أعلام الأئمة وسادتها وأركان الأمة وقادتها قد برأ الله الجميع من مغرة ذلك وأدناسه وطهرهم من أوضاره.

وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة وليس بالأحكام الشرعية والحمد الله فالافتقار إلى المنطق أصلا وما يزعمه المنطقي للمنطق من أمر الحد والبرهان فقعاقع قد أغنى الله عنها بالطريق الأقوم والسبيل الأسلم الأطهر كل صحيح الذهن لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ولقد تمت الشريعة وعلومها وخاض في بحار الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة

يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به فالواجب على السلطان أعزه الله وأعز به الإسلام وأهله أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الاسلام لتخمد نارهم وتنمحي آثارها وآثارهم يسر الله ذلك وعجله ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ثم سجنه وألزامه منزله ومن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم فإن حاله يكذبه والطريق في قلع الشر قلع أصوله وانتصاب مثله مدرسا من العظائم جملة والله تبارك وتعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم. انتهى

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»[٧٠]، فدل على أنه الداعي إلى الإيمان، وصح أن الدعوة له والحجة إنما تقوم به[٧١].

---

[٧٠] أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[٧١] هذا واضح جداً أن دعوة النبي ﷺ وتعاليمه كافية في إقامة الحجة وبيان الحق، غير أن كثيراً من أهل الكلام لم يروها حجة كافية. نعم، لما يستحكم على قلوبهم داء الفلسفة قلّ منهم من ينتفع بشفاء الصدور من القرآن والسنة.

قال فيهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: رأيي ومذهبي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويجلسوا على الجمال ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام. (أخرجه أبو نعيم الأصفهاني رحمه الله في "حلية الأولياء" (٩/ ص ١١٦) والخطيب البغدادي في ("شرف أصحاب الحديث"/ برقم (١٦١) ، **وهو صحيح لغيره**).

والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر كلام الخطابي وكان إماما في الفقه واللغة وغيرها توفى في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة.

انتهى التعليق بعون الله تعالى وحده

في ماليزيا، ولاية قدح بتاريخ ٢١ ذي الحجة ١٤٣٨ هـ

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الرسالة